حكايات السندباد



تقديم:
خالد بلقاسم

كتاب الدوحة

حكايات السندباد



يُوَزَّع مجّاناً مع العدد (143) من مجلَّة «الدوحة» - سبتمبر - 2019

عنوان الكتاب: حكايات السندباد
تقديم: خالد بلقاسم

الناشر: وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:
الترقيم الدولي (ردمك):

الإخراج والتصميم: القسم الفَنّي - مجلّة الدوحة
رسومات: Maria Kuza's (روسيا)

هذا الكتاب:
يُعبِّر عن آراء مؤلِّفه، ولا يُعبِّر -بالضرورة- عن رأي وزارة الثّقافة والرياضة أو مجلّة الدوحة

حكايات السندباد

تقديم:
خالد بلقاسم

من كتاب «ألف ليلة وليلة» المجلد الثالث
النص مطابق لطبعة 1935 عن المطبعة والمكتبة السعيدية
المطابقة لنسخة مطبعة بولاق الأميرية 1863

كتاب الدوحة



تقديم

«في المُخاطرة جُزءٌ من النّجاة»

«موقف البحر» للنفّري

1. إضاءة

لمؤلَّف «ألف ليلة وليلة»، الذي إليه تَنْتسبُ حكايةُ سندباد البَحريّ، وَشائجُ قويّةٌ بالمَتاهة. فبنيةُ هذا المُؤلَّف قائمةٌ على تشَعُّب مَسالكِ الحَكي وتشابُكها. تتبدَّى هذه الوَشائجُ لا مِن تفرُّع الحكايات وانشطارِها وتوالُدِها وتعدُّدِ المَسارب التي تشقُّها وحسب، بل أيضاً مِن كوْن كتاب «ألفِ ليلة وليلةَ» غيرَ قابلٍ للاستنفاد تأويلاً، كما لو أنّ مَصيرَ قراءته أنْ يَظلَّ كُلُّ سَعْي إلى تأوُّلِه شاهداً على المَتاهات التي لا تنفكُّ تتوَلَّدُ مِنْ حكاياته. تبدُو هذه الحكاياتُ مُنتظمةً وَفقَ بنيةِ المتاهة. إنّها، أبْعَد مِن ذلك، تَبْدو كما لوْ أنّها صيغَتْ، أصْلاً، كي تُنتِجَ متاهات.

إذا كان كتابُ «ألف ليلة وليلة»، فَضلاً عن ذلك، مَجهولَ المُؤلِّف، فلرُبمّا لأنّهُ حصيلةُ ثقافاتٍ مُستمَدّةٍ مِنْ مُتخيَّل ذي أصُولٍ سَحيقة. ثقافاتٌ مَصُوغةٌ في حكاياتٍ ضمَّها كِتابٌ واحدٌ، وإنْ احتفَظَتْ هذه الحكاياتُ، مِنْ حيث بناؤُها وانشطارُها وتشابُكُها وتوالُدُها، باحتمالِ عَدٍّ مُؤلَّف «ألف ليلة وليلة» كُتُباً في كتاب، على نَحو ما شدّدَت عليه الدراساتُ التي انشغَلَت بمَسار تشكُّل هذا الكتاب وبسَيرُورَة تَكوينه. إنّ تأويلَه، بوَصفه سَيرورةَ حكاياتٍ تكوَّنت عبْر تاريخ ثقافيٍّ سَحيقٍ ومُتشعِّب، يَسمحُ بعَدِّه، حتى وإنْ انتسَبَ إلى العَرب، نِتاجَ ثقافاتٍ أسْهَمَتْ في تَشكُّله، وبعَدِّه تأليفاً بأيادٍ عَديدةٍ أكثر مِن اعتباره حَصيلةَ تأليفٍ شَخْصيّ. ذلك أنّ أصْلَ هذا الكتاب غامضٌ بوَجْهٍ عامّ، إذ نشَأَتْ حكاياتُهُ، كما يَرى بورخيس، بطريقة غامضة؛ فقد شَاركَ في صَوغ هذه الحكايات آلافُ المُؤلِّفين، دُون أنْ يَعلمَ أيٌّ منهُم أنّهُ كان يُساهِمُ في إبداعِ واحدٍ مِنْ أعْظَم الكُتُب[1].

كوْنُ كتاب «ألف ليلة وليلة» مَجهولَ المُؤلِّف يَجعلُ مَعناه يتلوَّنُ كُلَّ مَرّةٍ بالاحتمالات الدلاليّة التي تمْنَحُها لهُ القراءةُ، ويَجعلُهُ مُتحرِّراً مِن نسبة الكتاب إلى شَخصٍ بعَيْنه، ومُتحرِّراً مِن أثَر هذه النِّسبة ومِنْ ضَغْطِها في تَوْجيه التأويل. تحرُّرٌ يَفتحُ الكتابَ على مَتاهات التأويل المُتخلِّقة مِنْ بنيَتِه. كأنّ القراءةَ قدَرُ هذا الكتاب. إنّها مُؤلِّفُهُ المُتجدِّدُ دَوماً. القراءةُ، وَفق هذا التصوُّر، مُؤلِّفٌ مُتجدِّدٌ في ذاته، ومُجدِّدٌ لمَقروئه في الآن نفسِه؛ مُؤلِّفٌ قادمٌ باستمرار مِنْ مُستقبَلِ التأويل ومَجْهولِه.

لهذا كُلّه، غالباً ما اجتَذبَ كتابُ «ألف ليلة وليلة»، مُنذ تنبّهَ الأوروبيّون إلى قيمَتِه، قُرّاءَ كباراً، لأنّهُم عَثرُوا فيه على ما يُمكِّنُ القراءةَ مِن مُلامَسةِ اللانهائيِّ فيها. ذلك أنّ قراءةَ هذا الكتاب مَنذورَةٌ

(1) Jorge Luis Borges, Œuvres completes, II, Traduit par Jean Pierre Bernès, Roger Callois, Claude Esteban, Nestor Ibarra et Françoise Rosset, Bibliothèque de la Pléiade, Ed. Gallimard, 2010, p. 673.

لأَنْ تُوَلِّدَ لدى مُنجزها أسئلةً تمَسُّ، أساساً، صَميمَ الفعل القرائيّ، وتمَسُّ غُموضَ هذا الفعل، وتَعقُّدَ آليّاته، وشُسُوعَ مَجْهُوله. أبْعَد من ذلك، إنّ مَنْ حَوَّلوا هذا الكتابَ إلى مَدارِ اهتمامِهم وجَعَلُوهُ أَسَّ انشغالهم، قادَهُم هذا الانشغالُ إلى الإقرار بأنّ مَدارَ الكتاب ليس مُنفصلاً، هو ذاتهُ، عن أسئلة القراءة وقضاياها. اللافتُ، إذاً، أنّ تحويلَ كتاب «ألف ليلة وليلة» إلى مَدارِ اهتمام، على مُستوى الانشغال بالحَكي وبالمَعنى، يُفْضي إلى العُثور على وَشيجَةٍ بين مَدار هذا الكتاب وبين القراءة. لابدَّ لكُلِّ مَنْ نذرَ اهتمامَهُ القرائيَّ لهذا الكتاب أنْ يَعثرَ على ما يَصِلُ مدارَ هذا المُؤلَّف بالقراءة. إنّهُ مُؤلَّفٌ يُجسِّدُ، ببنْيَتِه وبتشَعُّب الحَكيْ والمَعْنى فيه، لانهائيّةَ الفعل القرائيّ. لا يُجسِّدُ الكتابُ هذه اللانهائيّةَ وحسب، بل يَصونُها أيضاً، ويَحْمي دَوامَها بما تنطوي عليه بنيتُهُ من خُيُوط تُؤكِّدُ انتسابَهُ إلى مَسارب المَتاهات، إذ لا أحدَ بمَقدوره قراءة هذا الكتاب إلى النّهاية، لا لأنّه كتابٌ مُمِلّ، بل لأنّهُ لا نهائيّ[1].

ليس تفرُّعُ الحكايةِ الواحدة، الذي به تَكُفُّ عن أنْ تكونَ واحدةً، وانشطارُها واتّخاذُها صِفَةَ المتاهة هُو فقط ما يَشُقُّ للحكايةِ دُرُوباً تأويليّةً بعَدَدِ الشِّعاب التي تَنفتحُ فيها. ثمّة، إلى جانب ذلك، تجاوُرُ الحكايات العامّ، من جهة، أي اجتماعُها في كتاب واحد، بما يترتّبُ على هذا الأمْر من احتمالٍ دلاليٍّ مُستمَدٍّ من مُسَوِّغات اجتماعِ هذه الحكايات، بعَدَدِها المُنتسِب إلى اللانهائيِّ كما يَرَى بورخيس[2]، في إضمامةٍ واحدة، على نَحْوٍ يَقتضي، في كُلِّ قراءةٍ مُنشغلةٍ بالكتاب، استحضارَ تجاوُرِ اللانهائيِّ الصامتِ في عَدد الليالي. وثَمّة، من جهةٍ أخرى، التجاوُرُ الخاصّ، القائم على الوُرودِ المباشر لحكايةٍ

(1) المرجع السابق، ص. 675.

(2) عدَّ بورخيس عُنوان «ألف ليلة وليلة» مِنْ أجْمل العناوين في عالَم الكُتُب. ورأى في كلمة «ألْف» مُرادفاً لكلمة «اللانهائيّ»، وأنّ صيغة «ألف ليلة» تَعْني لياليَ لانهائيّة، لياليَ غيرَ قابلة للعدّ والحَصْر. ورأى، تبعاً لذلك، أنّ صيغة «ألف ليلة وليلة» تَعْني إضافةَ ليلةٍ إلى ليالٍ لانهائيّة. المرجع السابق، ص.671.

بَعْدَ أخرى[1]، على نَحوٍ يَفرضُ التساؤلَ عن القُرب المُتحقِّق بين الحكايات في كتابٍ يَجعلُ الحكايةَ الواحدةَ تَنْشَطِرُ وتتوالدُ، بما يُتيحُ، على مُستوى التأويل، رَصْدَ امتدادِ هذا التّوالُد وتعدُّدِ صِيَغِه في التجاوُر القريب بين الحكايات، أي في الوُرود المُباشر لحكايةٍ بَعْد أخرى. لَعَلّ هذا الأمْر هو ما يَسمحُ بالحديث، في كتاب «ألف ليلة وليلة»، عن التجاوُر البَعيد والتّجاوُر القريب بَيْن الحكايات. كلا التّجاوُرَيْن يَفْتَحُ القراءةَ على دُرُوبها الشبيهةِ بالمتاهات، وعلى أسئلتِها الخَصيبة، أي أسئلةِ الوَشائج، والتماثلات، والخُيوط الناظمة لنَسيجٍ قائمٍ على علاقاتٍ سَحيقةِ الأصداء. تتقوّى هذه الوَشائجُ والتماثُلاتُ وتتشعَّبُ كُلّما راهَنَت القراءةُ على الحَفْر في أصْداءِ الحكايات، وفي أصُولها البَعيدة، وفي جُذورها الغامضَةِ والمُوغِلةِ في القِدَم.

كُلّما تحكّمَتْ هذه الوَشائجُ والتماثلاتُ في بناءِ التأويل وتحَوّلَتْ إلى انشغالٍ قرائيّ، اتّخذَت القراءَةُ ذاتُها صُورَةَ متاهة. تَغدُو القراءةُ، في هذه الحال، دَرْباً لا نهايةَ لهُ، وداخلاً بلا خارج. هكذا يَغدو كُلُّ عُثور على وَشيجةٍ مِنَ الوَشائج وكلُّ بناءٍ لها -لأنّ العثورَ على الوَشيجَة، في هذا السياق، غيرُ مُنفَصلٍ عن بنائها- إيذاناً بتوالُد الوَشائج، أي أنّ عَدْوَى بنيَة الحكايات، في «ألف ليلة وليلة»، يُصيبُ القراءةَ ذاتَها، ويمَتدُّ إلى الوِجْهة التي تأخُذها، ويَتحكَّمُ في بنيَتِها. لا يَبقى إنتاجُ المَتاهات، في هذه الحال، شأناً مُقتصراً على كتاب «ألف ليلة وليلة»، بل يَسْري في صِيَغ قراءَتِه. لرُبمّا جانبٌ مِنْ هذا الأمْر هو ما جَعلَ بَعضَ المُنشغلين بالكِتاب يَتحدَّثون عن عَدواه، وعن

(1) للتمثيل لمَلمَحٍ مِنْ مَلامح اللانهائيّ الذي يَنفتحُ مِنَ التجاوُر القريب بين حكاية وأخرى، يُمْكنُ الإشارة إلى مُقارَبةِ عبد الفتاح كيليطو لتَجاوُر حكاية حاسب كريم، في العديد من الطبعات العربيّة لكتاب «ألف ليلة وليلة»، مع حكاية السندباد، التي تَرِدُ في هذه الطبعات مُباشَرةً بَعْد حكاية حاسب كريم. تجاوُرٌ نَفَى كيليطو، بناءً على شريعةِ القراءة، أنْ يكون وليدَ الصُّدْفة، إذ عزاهُ إلى قرابةٍ عميقة بين الحكايتيْن. ومن ثمّ، إنّ الانشغالَ بالقُرب بين الحكايات وما يترتّبُ عليه منْ قرابات لن يَختلِفَ عنْ وُلوج المتاهات. اُنظر: عبد الفتاح كيليطو، الأعمال، الجزء الرابع، حمّالو الحكاية، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2015، ص. 56 وما بَعْدها.

خُطورَةِ قراءَتِه، وعن صِلَتِهِ بالمَوت.

إلى جانب ما تقدَّم، ثمّة مَوقعٌ قرائيٌّ آخَرُ لا يَكُفُّ عن تَخْصيب التأويل وإغنائه. يتعلّقُ الأمْرُ بالوَشائج التي تَحْكُمُ كُلَّ حكايةٍ مِنْ حكاياتِ «ألف ليلة وليلة» بالحكايةِ الإطار في هذا الكتاب، مِنْ جهة، وبمَسار العلاقةِ بين شهرزاد وشهريار، مِنْ جهة أخرى. ذلك أنّ كلّ حكايةٍ، في «ألف ليلة وليلة»، تفتحُ كوى عديدةً لتتبُّعِ ظِلالِ هذهِ العلاقةِ في تفاصيلِ الحَكي وعلاماتِه.

حكايةُ سندباد البَحريّ مُشرعةٌ هي كذلك، شأنُها شأنُ باقي حكايات «ألف ليلة وليلة»، على التآويل المُنشَغلة بنَسْج التماثلات، إذ تُسمَعُ في هذه الحكاية أصداءُ قديمةٌ، وتُرَى بين طيّاتِها ظِلالٌ سَحيقةٌ. ما يُسمَعُ فيها مِنْ أصداءَ بَعيدةٍ، وما يُرَى في تراكيبها مِنْ أطيافٍ مُتشابكة، يُغْري القراءةَ باستجلاءِ المَطويِّ في الحكاية، وإنْ كان كُلُّ سَعْي لهذا الاستجلاءِ يَعي حُدودَهُ في العُثور على الطّيّات وفي تَمديدها.

إنّ المَطويَّ في حكايةِ سندباد البَحريّ، وفي حكايات «ألف ليلة وليلة» بوَجْهٍ عامّ، مُمتدٌّ في أزْمِنةٍ مُوغِلةٍ في القِدم، ومُضْمِرٌ لتمثُّلاتٍ قادمةٍ مِنْ أساطيرَ سحيقة. الامتدادُ والإضمارُ مِنَ السِّماتِ الدّالّةِ على لا نهائيّةِ الكتاب ذاتِ الوُجُوه العديدة، وهُما معاً؛ الامتدادُ والإضمار، يَنضافان إلى تَشابُكِ حكايات الليالي وتوالُدِها. إذا كان تشابُكُ الحكايات وتوالُدُها يَرْسُمان مَنْحى أفقيّاً للمَلمَح اللانهائيِّ، الذي به يَتَّصِفُ الكتابُ، وبه تَتَّصِفُ قراءَتُهُ في الآن ذاته، فإنّ المَطويَّ في هذه الحكايات يَرْسُمُ مَنْحى عَموديّاً لهذا المَلمَح بوَجْهَيْه؛ الوَجْه المرتبط ببنْيَةِ الحَكي في الكتاب، والوَجْه المُقترن بمَسْلك قراءَته. إنّ تضافُرَ المَنْحَيَيْن يُضاعِفُ اللانهائيَّ القرائيَّ، ويُضاعِفُ صُورَةَ المَتاهة، مَازجاً فيها الامتدادَ الأُفقيَّ بالغَوْر العَموديِّ.

2. التسمية بما هي تحديد للهُويّة

يمْكنُ التمثيلُ للأصداء المُضمَرَة في حكايةِ سندباد البَحريّ بالحمولة الدلاليّة لعَدَد السّفرات التي قامَت عليها هذه الحكاية. وهو أمْرٌ سبقَ أنْ تنبَّهَ إليه بَعضُ دارسيها. ليس عبثاً أنْ يكونَ عددُ سفرات السندباد البَحريّ سبْعاً، بل إنّ للعدد مُوَجِّهات مفتوحةً على التآويل. فشريعةُ القراءة لا تُقرُّ بالصُّدفة حتى في أدقِّ التفاصيل، بل تنطلقُ مِنْ أنّ كلَّ تفصيل في الكتاب، مَهْما ضَؤُلَ، يَضطلعُ بوَظائفَ ويَنطوي على أبعاد. إنّ افتراضَ مقصديّة مُوَجِّهَة لاختيار العدد «سبعة»[1]، أو افتراضَ لاوَعْيٍ جَمعيٍّ سَحيقٍ مُتحكّمٍ في هذا الاختيار، يَجعلُ العددَ مُنطَلَقاً تأويليّاً وعلامةً مُضمَرةً لمعانٍ رَهينةٍ بما تُوَلِّدُهُ القراءةُ، خُصوصاً أنّ هذا العَدد، بوَجْه خاصّ، مُثقَلٌ بدلالات يتداخلُ فيها الدّينيُّ بالقُدسيِّ، ومُحمَّلٌ بتمثُّلات أسطوريّة ظلَّتْ تَنمُو عبرَ الزّمن، وخُصُوصاً أيْضاً أنّ هذا العَددَ يَرتبطُ بحكايةٍ مُنْضَوية تحتَ كتاب راهَنَ عُنوانُهُ العامُّ على عَدد ذي صلة باللانهائيّ؛ إنّهُ عَددُ «الألْف»، وقد انضافَ إليه عَدَدٌ آخَرُ يَفتحُ على بدايةٍ لا نهايَةَ لها. فهذا العُنوانُ يَتحكَّمُ في بنية الكتاب، ويُوَلِّدُ، حسب بورخيس، الرّغبةَ في قراءَته[2]، بما يكشفُ أنّ أَهمّية العَدد وحيَويّتَهُ في تأويل الكتاب بَيِّنَتان مِنْ عَتَبته، أي مِنْ عُنوانه.

إنّ ما يُقوّي وَجْهَيْ الافتراض السابق ويُعضِّدُهُما هو التنبُّهُ إلى تكرار العَدَد «سبعة» في الحكاية، إذ لمْ يَقتصِر وُرودُهُ على تَحديد عَدَد سفرات السندباد، بل امتدّ حُضورُهُ إلى مَتْن الحكاية. فقدْ وَردَ هذا العددُ في حكايةِ السّفرة الرابعة عندما تخلّصَ السندبادُ البَحريّ

---

(1) في نهاية السّفرة السادسة، يَروي السندبادُ حكايَتَها للخليفة هارون الرشيد الذي يأمُر المُؤرّخين بكتابتها. وهو ما جعلَ بعضَ الباحثين يَعْزُون هذا اللجوءَ إلى الكتابة، بُعَيْدَ هذه السّفرة، إلى كوْن حكاية السندباد تتضمّنُ ست أسفار فقط، غير أنّ السِّحْرَ الذي ينطوي عليه العدَد «سبعة» بَدا خليقاً بأنْ يَمنَحَها نهايةً مُرْضية، كما لو أنّ العدَد فرَضَ الاستجابةَ لدلالاتِ حمولتِه. انظر: عبد الفتاح كيليطو، الأعمال، الجزء الرابع، حمّالو الحكاية، م. س.، ص. 62.

(2) Jorge Luis Borges, Œuvres completes, II, op. cit., p. 674.

مِنَ السودان الذين يَأكُلون البَشر، حيث مَكثَ، كما تقولُ الحكاية، «سبعة أيّام بلياليها» في الجزيرة، قبْل أنْ يَهتديَ إلى الحَشد الذي كان يَجمعُ الفلفل. إلى جانب ذلك، ذُكِرَ العددُ «سَبعة»، في حكايةِ السّفرة الرابعة ذاتِها، مُقترناً بالأرْغِفة التي وُضِعَتْ في زادِ الرّجُل الذي دُفِنَ حيّاً في الجُبِّ رفقة زَوجته لمَّا فارَقَت الحياة. وتكرّرَ العددُ كذلك أثناء إنزال السندباد البَحريّ هو أيضاً إلى الجُبِّ حيّاً لمَّا تُوفّيتْ زَوجتُهُ، وَفقَ عادةِ قَومٍ لا يُفرِّقون بين الزّوْجَيْن في حالة وفاةِ أحَدِهما، إذ يُدْفَنُ الحيُّ إلى جِوار الميت. أبْعَد مِنْ ذلك، لابدَّ مِنَ الانتباه، في هذا السياق، إلى أنّ الأبياتَ الشعريّةَ التي تصدّرَت حكايةَ سندباد البَحريّ وشكّلت جُزءاً مِنْ إطارها العامّ ووَجّهَتْ مَسارَ مَعناها، كان عددُها سَبْعة. فالأبياتُ السَّبعةُ كانت حاسمَةً في انطلاقِ الحَكي، لمُدّةِ سَبْعةِ أيّام، عن سَبْع سفرات، كما سَيأتي بيانُ ذلك.

لِحمولةِ العَدَد «سبعة»، خارجَ حكايةِ السندباد، شِعابٌ عَديدةٌ يَتداخلُ فيها الأسطوريُّ بالدينيِّ وبالقُدسيّ. يمْكنُ أنْ نَستثمرَ مِنْها شِعْباً واحداً يَخُصُّ، وَفق ما تسمَحُ به حكايةُ سندباد البَحريّ، علاقةَ العدد «سبعة» بالاسْم الشخصيّ، وبتحديدِ الهُويّة، خُصوصاً أنّ مَوضوعة «الاسم» تُطِلُّ، بصورةٍ صَريحةٍ قبْلَ أنْ تَسريَ مُضْمَرَةً في ثنايا الحَكي، مُنذ بدايةِ الحكاية، أي مُنذ لحظةِ التعارُف الذي تمَّ بين السندباد البَحريّ والسندباد الحمّال. ما العلاقة، إذاً، المُحتمَلة بين هذا العدَد واسْم السندباد البَحريّ؟ لقد اقترنَ هذا العددُ، مُنذ أزْمِنةٍ سَحيقة، بالتّسمِيَة، إذ جسَّدَ عددَ الأيّام التي تَسبقُ تَسْمِيَةَ المَولود، كما هي الحال في العقيقة وَفق منظور الدين الإسلاميّ. سبعةُ أيّام يكونُ فيها الفردُ بلا اسْم، فتكونُ تَسْمِيَتُهُ في اليَوم السابع كما لو أنّها تحديدٌ أوّليٌّ لهُويّته. أيَنطوي، إذاً، عَدَدُ سفرات السندباد البَحريّ على ما يَجعلُها تَسويغاً لاسْمه، وكشْفاً لدلالةِ الاسْم، وتحديداً لِلهُويّة؟

لرُبمَّا يَتعيَّنُ الانتباه، أثناء التفكير في هذا السؤال، إلى مَوضوعةِ «الباب» في بدايةِ الحكاية. لقد شغلَ «البابُ» حيّزاً دلاليّاً هامّاً في الإطار العامّ لحكاية السندباد، إذ فَصلَ بين عالمَيْن؛ عالم البرّ، الذي فيه عاشَ السندبادُ الحمّال، وعالم البَحر والغرابة والعجائبيّ، الذي فيه يَعيشُ السندبادُ البَحريّ. اجتياز السندباد الحمّال لباب الدار، التي فيها يَقطنُ السندباد البَحريّ، اقترنَ بدَعوةٍ تلقّاها مِنْ صاحب الدار، واقترنَ، أساساً، بالتقريب والمُؤانسَة والترحيب والإطعام، قبْلَ أن تُثارَ مَسألةُ الاسْم، كما لوْ أنّ الأمرَ يَتعلّقُ باحتفاءٍ بدلالة الاسْم، وبطقُوس التهيُّؤ لتعرُّف هذه الدّلالة. أنْ تتقدَّمَ التّسْميَةَ دَعوةٌ ومُؤانسةٌ وتَرحيبٌ وإطعامٌ، مَعْنَاهُ، مِمّا يَحتملُهُ مِنْ مَعنى، أنَّ الضيافةَ تَهييءٌ لاستيعاب دلالةِ الاسْم، ولِما يَتطلّبُهُ هذا الاستيعابُ مِنْ زَمَنٍ تحدَّد، في الحكاية، في سَبْعةِ أيّام. ذلك أنّ السندباد الحمّال دأبَ على الحُضور إلى بَيْت السندباد البَحريّ، لمُدّة سبعة أيّامٍ مُتتالية، كي يَتعرَّفَ مَن هُو هذا الأخير، أي أنْ يتعرَّفَ اسْمَه وهُويَّتَه. كانَ كلُّ يَوم، مِنَ الأيّام السَّبعة التي حَلَّ فيها السندبادُ الحمّال بالبَيت، يُشكّلُ إضاءةً لجانب مِنْ جَوانب شخصيّة السندباد البَحريّ، إذ أتاحَ الحَكيُ، الذي كان يتمُّ في كلّ يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ السَّبعة، استجلاءَ سفرةٍ مِنْ سفرات السندباد البَحريّ السبع، إلى أنْ تمَّ، بحُلولِ اليَوم السابع، استجلاءُ مُختلف جَوَانب هذه الشخصيّة. في كلِّ يَوم، كان جُزءٌ من اسْم السندباد البَحريّ يتكشَّفُ، إلى أن اكتملَت التّسْميَةُ بانتهاء الأيّام السَّبعة. وبانتهائها، انتهَتْ حكايةُ السندباد البَحريّ بوَجْهٍ عامّ. ألا تُوازي، إذاً، السّفراتُ السَّبع، بمَعنى ما، الأيّامَ السَّبعة التي تتقدَّمُ إطلاقَ الاسْم على الفَرد؟ ألمْ تكُن ضيافةُ السندباد البَحريّ إيذاناً للأوّل بأنْ يتعرَّفَ الثاني، وبأنْ يَستوعبَ دلالةَ اسْمه؟ ألمْ تكُن السّفراتُ السَّبْع، التي تمّتْ روايةُ أحداثها في سَبعةِ أيّام، تنطوي على ظِلالِ الاحتفاءِ بالتّسمية، انطلاقاً مِن استجلاءِ هُويّةَ السندباد البَحريّ؟

ليْسَت الأسئلةُ السابقةُ مُتحصّلةً عن حَدْسٍ مِنْ خارج حكايةِ السندباد البَحريّ. إنّها، على العكس، أسئلةٌ مُتوَلِّدةٌ مِنْ داخل

الحكايـة، وتحديـداً مـن بدايَتِهـا، التي تُشـكّلُ فيها مسـألةُ التّسْـمِيَة جُزءاً مِـنَ التأطير العـامّ. فَبَعْـد تَرْحيـبِ السـندباد البَحـري بالسـندبادِ الحمّال وإطْعامِـه، سـألَ الأوّلُ الثـاني بصُـورَةٍ مُبـاشِرَة قائـلاً: «فـما يكونُ اسْـمُك؟ ومـا تُعـانِي مِـنَ الصّنائـع؟ فقال لهُ: يا سـيّدي، اسـمي السـندباد الحمّال، وأنـا أحْمـلُ عـلى رأسي أسـبابَ النـاس بالأجـرة. فتبسَّـمَ صاحـبُ المـكان وقـال لـهُ: اِعلم يـا حمّال أنّ اسـمَكَ مِثل اسـمي، فأنا السـندبادُ البَحريّ». إنّ سُـؤالَ السـندباد البَحـريّ وجَوابَـهُ، في هذا الشـاهد، مَصوغـان بتَوْجيه مِـنَ المَعنـى المُضمَـر في الأبيـات السَّـبْعة التـي أنشـدَها السـندبادُ البرّيَّ عندمـا تجـاوَزَ المصطبـة إلى البـاب، ومنـهُ إلى داخـل منـزل السـندباد البَحـريّ. تَوْجيهٌ بَيِّنٌ مِنْ سُـؤال السـندباد البَحريّ قرينَـهُ عن نَوْع مُعاناته، وبَـيِّنٌ أيضـاً مِـنْ إقـراره بالمُماثلـة بَيْنَـهُ وبَـيْنَ ضَيفـه. إنّهـا المُماثلـةُ التـي عملَـتْ حكايـةُ السـندباد البَحـريَّ، في كلِّ أطوارهـا، عـلى إبـراز الاختـلاف الـذي يَبنيهـا، كـما لـو أنّ نُمُـوَّ المعنـى، في حكايـةِ السّـفرات السَّـبْع، كان مَحكومـاً -أساسـاً- بالكشْـف عـن الاختـلاف البـاني للمُماثلـة.

تنطَـوي المُماثلـةُ في الاسْـم، إذاً، عـلى الاختـلاف. فالمُماثلـةُ ليْسَـت تطابُقـاً. مـن ثَـمَّ، احتفظَـت كلُّ شـخصيّة مِـنَ الشـخصيّتيْن بصفَـة تُـبرزُ، في اسْـمها، هـذا الاختـلافَ الـذي تَحَـدَّدَ، وَفـق هـذه الصِّفـة، انطلاقـاً مـمّا يَفصـلُ المـاءَ عـن اليابسـة. الشِّقُّ الأوّلُ من اسْـم الشـخصيّتيْن مُشـترَكٌ بينهُـما، أمّـا الثـاني، الـذي تُجَسِّـدُهُ الصِّفَـةُ، فمُختلِـفٌ. لكـنّ الاختـلافَ يَسْري، بتأثير واضِح مِـنَ الصِّفـة، حتّـى في المُشـترَك ذاتِـه، إذْ كان للصِّفـةِ المُشـكِّلة للاسْـم دَورٌ رَئيسٌ في جَعْـل هـذا المُشـترَك مُختلفـاً في الآن نَفْسـه. لَعَـلّ هـذا مـا تَـرُومُ حكايـةُ السّـفرات السّـبع تأكيـدَهُ. لَقد كانـت، وهـي تَسْـتجْلي المُشـترَك القائـمَ عـلى تحمُّـل المشـاقّ والأهـوال، تُـبرزُ، في الوَقـت ذاتـه، مـا تَختلـفُ فيـه أهـوالُ المـاء عـن أهـوال البـرّ، عـلى نَحْـوٍ جَعـلَ صِفَـةَ «البَحـريّ»، في اسْـم السـندباد، علامـةً فارقـةً بين الشـخصيَّتين. كان الاسـمُ، الـذي اقترَنَـتْ بـه هـذه الصّفـةُ، مُتوَقِّفـاً عـلى دلالتهـا. إنّهـا الدلالة التي أنْسَـتْ السـندبادَ البرّيَّ، وهي تتكشّـفُ تدريجيّاً عبرَ الحَكي، مشـاقّهُ ومُعاناته. كان السـندباد البرّيّ، وهو يُنصِتُ للحَكي،

يتعـرَّفُ جوانـبَ مِـنْ هـذه الصّفـة، أي يتعـرَّفُ اسـمَ السـندباد انطلاقـاً منهـا، ويتعـرَّفُ اختلافهُـما، في الآن ذاتـه، بنـاءً عليهـا. كانـت الحكايـة، وهـي تَكْشِـفُ عـن الأهـوال والشـدائد والمَصائـب، التـي كابَدَها السـندبادُ البَحـريّ، كـما لـو أنّهـا تَنسَـخُ مشـاقّ السـندباد البـرّيّ ومُعاناتـه، وتَنتـزعُ اعترافَـهُ البَيِّنَ من دَهشـتِه وتقديره، وتكشِـفُ هشاشـةَ حِمْلـه الذي عبرّت عنـهُ الأبيـاتُ الشـعريّة بالقـول: «ومـا حمَـلَ الدّهـرُ يَوْمـاً كحِمْلي». قَـولٌ أخـذَ يَفقـدُ مصداقيّتَهُ مُنذ حكايةِ السّـفرة الأولى. كأنّ المـاءَ الباني لصِفَةِ «البَحـريّ» جَـرَفَ صِفَـةَ «الحـمّال»، وجَـرَفَ مَعَها حِمْـلَ السـندباد البرّيّ، وأبـانَ عـن خِفّةِ هذا الحِمْـلَ الذي كان صاحبُـهُ يُهوِّلُ منهُ. تهويـلٌ أضْمَرَتْهُ الأبيـاتُ السَّـبعة التـي أنشـدَها على باب السـندباد البَحـريّ، حتـى لَيُمْكِنُ أنْ تُقـرأ الحكايـاتُ السَّـبْعُ بأنّهـا نَسْـخٌ للظنـون التـي تضَمّنَتْهـا الأبيـاتُ السّـبعة، وهـو مـا سَـيأتي تَوضيحُـهُ في حينـه.

إنّ الأيّـام السَّـبعة، التي اسـتغرَقَتْها روايةُ حكايات السّـفرات السَّـبع، شـبيهةٌ بالتهيّـؤ للتَّسْـمية. فبَعْـد انتهـاءِ الأيّـام السّـبعة، يَكـونُ اسـمُ السـندباد البَحـريّ قـد تكشَّـفَ، ويكـونُ قرينُـه والمُنصتـون للحكايـات قـد أدْرَكـوا أنّ صِفَـةَ «البَحـريّ» في الاسْـم مُرادفـةٌ للمُغامَـرة، وللإقامـة عـلى حُـدُود الخَطـر. لقـد تسمَّى السـندبادُ بالبَحـريّ، لأنّ هُويّتَـهُ قائمـةٌ عـلى مـاءٍ لا يَعـرفُ الاسـتقرار، قائمـةٌ عـلى المُغامَـرة في أقاصي البحـار، وعلى المُخاطرة في حدِّها الأقصى. فحكايةُ السّـفراتِ السبع تُسمِّي السـندبادَ وتَسْـتَجْلي هُويّتَـهُ. لَعَـلّ ما يَتعـيَّنُ الانتباه إليـه هو أنّ الحكايةَ تُشـدِّدُ، في سـياق التسـميَة، على الفَقدِ في تحديدِ هذه الهُويّة، إذ كان لافتاً أنّ ظُهورَ مَوضوعـةِ الاسْـم، في حكايَتَـيْ السّـفرة الثانيـة والسّـفرة الثالثـة، اقـترنَ ببضاعـةٍ مَفقـودَةٍ عَمِـلَ السـندبادُ عـلى اسـتعادةِ ملكيّتهـا بروايـةِ حكايـة تُثبـتُ نِسـبةَ المَفقـود إليـه. إنّ مـا يُسـتعادُ، في أغلـب السّـفرات، يَظـلُّ مَوشـوماً بتَجربـةٍ مَشـدودةٍ إلى الفَقـد والتيـه، باعتبارهـما مِـنْ مُحـدِّداتِ هُويّـةِ السـندباد البَحـريّ.

3. هُويّةُ الامتلاك بالتيه والفَقْد

يَحتفظُ تفكيرُ السندباد البَحريّ أوّلَ مرّة في السّفر بما يَصلُ هذا التفكيرَ بمَوضوعةِ الفَقْد، قبْل أنْ تَسريَ تجلّياتُ هذا الفَقْدَ، بصُوَرٍ أخرى، في الوَقائع التي شهدَتْها كُلُّ السّفرات السَّبْع. أمّا التّيه، فيكادُ يكونُ ثابتاً في كُلِّ سفرة. ما مِنْ سفرة، مِنَ السّفرات السَّبْع، قصَدَتْ وجْهَتَها دُون تيه. ذلك أنّ التّيهَ شكّلَ مَوضوعةً رَئيسَةً في حكايةِ كلِّ سفرة، بل هو جُزءٌ مِن بنْيَةِ كلِّ حكايةٍ مِنَ الحكايات السَّبْع التي يَرويها السندبادُ البَحريّ. في كلِّ سفرة، يَترسَّخُ الأمرُ التالي: كي يَهتديَ المَرْءُ إلى وجْهَته، لابدّ أنْ يَتيهَ. فالتيهُ سَبيلُ كلِّ اهتداء. ومن ثَمَّ، شَهدَت الحكاياتُ السَّبْعُ تشابُكاً دلاليّاً بَيْن الفَقد والتيه. إنّ إضاعَةَ الملكيّة المَوروثة، والحِرْصَ على استعادة ملكيّة ذاتيّة بَعْد فَقْدها، وسلوكَ طريقٍ يقومُ دَوماً على التيه، أمورٌ مُتداخلةٌ في رَسْم هُويّةِ السندباد البَحريّ؛ هُويّة لا تنفصِلُ عن المُخاطرة، بل بها تتحدَّدُ وتتجدَّدُ.

صرَّحَ السندبادُ البَحريّ بأنّ الشروعَ في السّفر انطلقَ أساساً، في البَدء، بَعْد إضاعَة إرْث الأب وبَيْع ما تبقّى منه، أو بتعبيره، بَعْدَ بَيْعِ جميع ما تَملكُ يَدُه. انطلاقُ السّفر، بهذا المعنى، تمَّ، إذاً، بدافعِ الانفصال عن الأب وشَقِّ بدايةٍ جديدة، أي بدافعِ البَحْث عن الذات واختبار أقْصَى مُمْكنها. لقد كانَ الانفصالُ، في تجربةِ السندباد البَحريّ، حَيويّاً في بناءِ هُويّته، حتّى وإن اتّخَذَت وجْهَةُ هذا الانفصال مَنحى دائريّاً، كما سَيأتي بَيانُه. انفصالٌ يتكشَّفُ، مِنْ بين ما منهُ يتكشَّفُ، مِنْ قراءةِ تماسِّ الحياة بالمَوت في تجربةِ السندباد البَحريّ، ومِنْ تَماسِّ الفَقْد بالامتلاك فيها، وتماسِّ التيه بالاستهداء في الدّرب الذي تشُقُّهُ هذه الشخصيّةُ لحَياتها، على نَحْوٍ جعلَ تجربةَ السندباد حَدِّيَّةً؛ تُقيمُ في الحَدِّ الفاصل بَين طرَفيْن مُتقابلَيْن، وتَبْني مِن داخل هذا الحَدّ، الوَاصِلِ لا الفاصِل، مَعْنى خَصيباً للذات وللحَياة.

في هذه التجربة الحَدِّيَّةِ، تتخلّقُ الحياةُ مِنْ مُلامَسة المَوت، وتتحقّقُ النجاةُ على حافةِ الهلاك، ويتحَصّلُ الكسْبُ بإضاعَةِ المُمتلَك. في هذه

التجربة، ثمَّةَ مَشهدٌ يَكادُ يكونُ ثابتاً، يتعلّقُ الأمرُ بالسندباد وَحيداً بلا رفيق، مُجرَّداً من كلِّ شيء، وبدُون متاع. مِن داخل هذا المشهد الذي يُقوِّي دلالةَ الانفصال، تَبْدَأُ، في الغالب، مُغامَرةُ اختبار أقْصَى مُمْكِن الذات، على شفا المَوت. بُلوغُ الأقاصي، الذي تُرْسيه تجربةُ السندباد، يُفيدُ دَوماً أنّ الطريقَ إلى البَعيد القَصيِّ تيهٌ وفقدٌ، ويُفيدُ أنّ هذه الطريقَ إقامةٌ لا على حُدُودِ المَوت وحسب، بل اختبارٌ لأقسَى صِيَغه وأقْصاها. ذلك أنّ حكايةَ السّفرات السّبْع تضمَّنَت تدرُّجاً في فَظاعةِ المَوت، كما لوْ أنّها كانَت تَرُومُ الإقناعَ باختبار الشخصيّةِ لكُلِّ أشكاله.

إنّ السِّمَةَ الحَدِّيَّةَ جَعَلَتْ مِنْ تَجربَةِ السندباد إقامةً في الأقاصي[1]، إذ لمْ يَكُن مَفهومُ الحَيَاة، في هذه التجربة، مُنْفَصلاً عن المُخاطرَة، وعن مُلامَسَة عتبات المَوت. لذلك، كان ما هو حَدّيٌّ في التجربة واصلاً، كما سَبقَت الإشارةُ، بَيْنَ طَرَفيَ الحَدِّ لا فاصلاً بَينَهُما، لأنّ السّفرات كشفَت أنّ المُخَاطرَة رُؤيةٌ لحياةٍ تتخلَّقُ من القصيّ.

مِنْ ملامح هذا القصيّ في التجربة، الانطلاقُ مِنْ لا شيء، أي اتّخاذُ الفَقْدِ سبيلاً إلى الامتلاك، واعتمادُ التيهِ سبيلاً إلى الاهتداء. ثمَّة شَيءٌ يتحرَّرُ منهُ السندبادُ البَحريّ في بدايةِ السَّفر، كأنّ فكرةَ السَّفر، بما هي تجدُّدٌ، مَشدودةٌ إلى التخلِّي عن إرْث الأب، أي عن رَوابطَ لا تَسْمحُ بالمُغامَرة والمُخاطرَة والانفصال عن الجُذور، ولا تُتيحُ اكتشافَ الذات باكتشاف الغَريب عنها. صَحيحٌ أنّ السندباد يَعُودُ دوماً إلى مدينةِ الانطلاق؛ إلى مَوْطنه الأصليّ، ولكنّهُ يَعودُ بعْدَ أن يَبتعدَ عن مكانِ العَودةِ بأقصى ما يَكونُ البُعد. هذا البُعدُ هو ما يَسِمُ العَودةَ، إلى المَوطن الأوّل، بما بهِ تختلِفُ عن لحظةِ الانطلاق. الإرثُ، في هذا السياق، اتّصالٌ قائمٌ على رَوابط، إنّهُ مُكوثٌ في مكانٍ واحد، أمّا السَّفرُ فتجدُّدٌ يَسمَحُ بالعَودة إلى المكان الأوّل، ولكن برُؤيةٍ أخرى يَكُفُّ فيها

(1) القصيُّ هو أحدُ الملامح المُميّزة لكتاب «ألف ليلة وليلة». هو، كما يرى بورخيس، انطباعٌ يُوَلِّدُهُ هذا الكتاب، الذي فيه يُدرَكُ «الشرقُ» بأنّهُ هذا القصيّ. المرجع السابق. ص. 674.

المكانُ عن أنْ يَبقى هو نفسَهُ، لأنّ العائدَ لمْ يبْقَ هُوَ هُو. السّفرُ انفصالٌ عن إرْث، بغايةِ كسْبِ ذاتيٍّ جديدٍ، انطلاقاً من المُغامَرة والمُخاطرة، ومن مُلامَسةِ القصيّ. مُلامَسةٌ تجعلُ القريبَ يَخرُجُ عَنْ صُورَتِه الأولى. إنّهُ القُربُ المَنطوي على البُعد والمُتولِّدُ منهُ، تَجَاوُباً مع حَياةٍ مُتحصّلة على حُدُودِ المَوت، ومع امتلاكِ بالفَقد، ومَعَ استهداءٍ بالتيه. ومن ثَمَّ، إنّ مُنطلَقَ السَّفر، في تجربة السندباد البَحريّ، يَكشِفُ أهمّيةَ الفقدِ في التّحصيل، وأهمّيتَهُ في بناءِ الهُويّة الذاتيّة، بل إنّ فِعْلَ استعادةِ المفقود، في هذه التجربة، فعلٌ مُمِدٌّ وواهبٌ. وفَضلاً عمَّا به يُمِدُّ هذا الفعلُ السندبادَ البَحريّ، يُمَكّنُهُ هو أيضاً مِنَ الاضطلاع بالهِبَة، إذ به يَصيرُ قادراً على العَطاء. استعادةُ المَفقود وتحصيلُ ما لمْ يَكُن أصْلاً في حوزة السندباد، هُما ما يَهَبُهُ قُدرةً على الحَكي، وهُما ما يَجعلُهُ في الآن ذاتهِ واهباً. إنّ مَوضوعةَ الهِبَة، سواء أتعلّقت هذه الهِبَة بمَنْح الهدايا أم بتقديمِ حكايات، دالّةٌ في تجربةِ السندباد البَحريّ.

بَعْدَ هذا المَعنى العامّ، الذي اتّخَذَهُ الفَقدُ في فكرةِ السَّفر التي عنَّتْ للسندباد البَحريّ، اتّخذَ الفَقدُ في السّفرات السَّبْع جميعِها صُورةً أخرى. تَنطلقُ كلُّ سفرة بالتّهيُّؤ والاستعداد، وذلك بتَوفير أسبابها، أي اقتناء البَضائع والأمْتعة وحَزْم حمولٍ نَفيسة. وتقومُ كلُّ سفرة، على نحوٍ مُتواتر، على فَقْدِ ما تمَّ تَوْفيرُهُ عُدّةً للسّفرة، حتّى ليَبْدُو أنّ البَضائعَ والحُمولَ لا تُهَيَّأ، في بداية السّفرة، إلّا تَحضيراً لمَشهدِ فَقْدها، بوَصْف هذا المَشهد أحَد ثوابتِ كلِّ حكايةٍ مِنْ حكايات السّفرات السَّبع. يَتمُّ تَوفيرُ العُدّة لا لتكونَ سَنداً للسّفرِ وتأميناً له، بل لتُضاعِفَ، بفَقْدها، المُغامَرةَ والمُخاطرَة، وتجعلَ التجدُّدَ قائماً على انفصالٍ دائم حتى وإنْ كان مَنحاهُ دائريّاً. هكذا تكونُ استعادةُ العُدّة الضّائعة، كما في بَعض السّفرات، أو تعويضُها بما هو أحْسن منها، كما في سفرات أخرى، تجدُّداً ذاتيّاً، يَكُفُّ فيه المُستعادُ عن أنْ يَكُونَ هو نفسَهُ، لأنَّ صاحبَهُ لمْ يَبْق، لحظةَ استعادته المَفقودَ، هُوَ هُوَ، حتى إنْ ظلَّت البضاعةُ المفقودةُ هيَ هيَ. يَكونُ الغُنْمُ في الحالتيْن مُتحصّلاً عن تجربةٍ حَدِّيَّةٍ تُلامِسُ الفَقد التّامّ، وتُرسِّخُ حَيَويّةَ القَصيِّ في بناءِ الهُويّة. مِنْ ثَمَّ،

ليس صُدفةً أنْ تظهرَ دلالةُ «القَصيّ»، في حكايةِ السّفرة الأخيرة، بدَوَالّ عديدة، أوّلها دالّ «الصّين»، إذ بلغَت الرحلةُ «مدينة الصّين»، المُرتبطة بالبُعْدِ القَصيّ، ودالّ «آخِر» البحار وتخومها، إذ توَجَّهَ قائدُ المَركب إلى الرّكّاب قائلاً: «اِعلموا أنّ الرّيحَ قد غلبَ علينا ورَمَانا في آخِر بحار الدّنيا». وهو ما تَجَاوَب دلاليّاً مع الفَقد القصيّ، الذي طالَ كلَّ شَيء، إذ يقولُ السندبادُ البَحريّ، في حكايةِ السّفرة السَّابعة، عن المَركب: «فانكسَرَ وتفرَّقَتْ جَميعُ الألواح وغَرقَت جَميعُ الحمول والتّجار والرّكّاب في البَحر». هذا المَشهدُ الشاملُ تَجسيدٌ للقَصيِّ في التجربة، وتجسيدٌ لملامَسَة تُخوم المُخاطَرَة. هكذا يَجدُ السندبادُ البَحريّ نَفسَهُ، وفق هذا المَشهد، في آخِر بحار الدّنيا، مُجرَّداً مِنْ كلِّ شَيء. أيكونُ هذا الفقدُ الشاملُ البلوغَ الأقصى في تجربةِ القَصيّ؟ أيكونُ هو ما أتاحَ الإشباعَ الشامل؟ أليسَ هذا الفَقْدُ الشامِلُ، بما يَنطوي عليه مِنْ إشباعٍ شامل، سبَبَ «تَوْبة» السندباد البَحريّ أخيراً مِنَ السّفر، رغم أنّ السَّفرَ كانَ مُحدِّداً لهُويَّته؟ ألمْ تكُن السّفرةُ السَّابعة، التي دامَتْ سبعَةَ وعشرين عاماً[1] (لنَنْتَبه مَرّةً أخرى لانبثاق العَدَد «سبعة») قمّةَ المُخاطرَة التي لا شيء بَعْدها؟ أليست «التوبة» مِنَ السّفر شَكلاً مِن أشكال بلوغ الأقصى الذي لا شيء وراءهُ، ممّا يُلزمُ بالأوْبَة؟ يمْكنُ اتّخاذ هذه الأسئلة كوى تأويليّةً، في قراءات مُستقبليّة، لتأمُّل تَوبَةِ السندباد مِنَ السّفر، وللتساؤُل عمَّا يمْكنُ أنْ يَربطَ السَّفرَ بالتوبة[2].

يمْكنُ، استناداً إلى خَصيصَة الوَشائج التي تمَّ الإلماحُ إليها سابقاً، التنبّهُ، في سياق هُويّةٍ تقومُ على الفَقد، إلى علاقةِ استعادَةِ المَفقود،

---

(1) السّفرةُ السَّابعة هي الوحيدة التي تُحدِّدُ الحكايةُ زمَنَها. إذا افترَضْنا أنّ السّفرات الستّ السابقة عنها قد استغرَقَتْ هي أيضاً مدّة طويلة، فإنّ ما يترتّبُ على ذلك، هو أنّ السندبادَ البحري وَهَبَ حياتَهُ للسفر، وأنّ مُعظمَ حياته كانَ في السّفر، وما إصرارُه على رواية حكايةِ الأسفار إلاّ تمديدٌ، بمَعنى ما، للسفر أو لذكراه على الأقلّ.

(2) سبق لكيليطو، في هذا السياق، أن تساءلَ: «هل السّفَرُ مِنَ المَحظورات؟ ما هو الذَّنْب الذي اقترفَهُ [يقصد السندباد البَحريّ] والذي يَستَلزم التوبة؟». وقد رجّحَ كيليطو أنّ السندباد تابَ مِنْ «فتنة العالَم الغَريب والنزعة إلى الذوبان فيه». اُنظر: عبد الفتاح كيليطو، الأعمال، الجزء الثاني، الماضي حاضراً، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2015، ص. 98.

في حكايةِ سندباد البَحريّ، بالمَنحى الدائريّ في الانفصال الذي عليه تَنهضُ الحكاية. ذلك أنّ المَسارَ الذي تقطعُهُ كلُّ سفرة، منَ السّفرات السبع، يَنطوي على هذا المَنحى، إذ غالباً ما يَصيرُ مُنطَلَقُ السّفرة، بَعْد التّيه ومُلامَسةِ أقصى الهَلاك، هو وجْهتَها. ومِنْ ثمّ، إنّ كُلَّ السّفرات انطلقَت مِنْ بغداد إلى البَصرة، ثمَّ إلى بحارٍ وجزائرَ ومُدُنٍ نائية، قبْل أنْ تَعودَ إلى البَصرة، ومِنْها إلى بغداد. لكنّ بغداد بَعْدَ السّفر لا تَبقى، في منظور السندباد البَحريّ، هي ذاتَها، لأنّ السندباد يَعودُ إليها مُحمَّلاً بالقصيِّ الذي يَنطوي على العجيب والغَريب، ولأنّ العائدَ يَغدو قادراً على الاضطلاع بمهمَّة الحَكي، أي بإخبار مَنْ هُم في بَغداد بما يَجهلونَهُ، وبما يَبدُو لهُم غَريباً ومُدهشاً. ألمْ يُثِر السندبادُ البَحريّ حتى إعجابَ الخليفة هارون الرشيد، الذي يُجَسِّدُ هرمَ السُّلطة زَمنئذ، لمّا رَوى لهُ أحداثَ السّفرة السادسة؟

إنّ الدائريَّ في رحلة السندباد ليس مُغلقاً. إنّهُ قائمٌ على انفصالٍ يُجدِّدُ المُنطلَقَ حتى وهو يُحوِّلُ هذا المُنطلقَ إلى وجْهَة. لا يَغدو المُنطَلَقُ وجْهَةً إلّا بَعْدَ الفَقد والتيه واختبار المَوت، على نَحْوٍ يُمَكّنُ المُنطَلَقَ مِنْ أن يَحظى بالغَريب. لَعَلَّ هذا المَسار هو ما يَجعلُ تجربة سفرات السندباد البَحريّ، وإنْ انتهَتْ دَوماً بالعَوْدة إلى المَوطن الأوّل، قائمةً على الانفتاح، لأنّ الغريبَ يَصيرُ، في كلِّ عَودة، مُكوِّناً مِنْ مُكوِّنات التجربة. الغُنمُ في هذه التجربة مُتحصّلٌ مِنَ التيه، ومن استعادة المَفقود على شفا الهلاك. إنّهُ غُنمٌ يُمَكِّنُ السندبادَ البَحريَّ لا مِنَ الجواهر النفيسَة، بل أبْعَد من ذلك، يُمَكّنُهُ مِنْ تجديدِ ذاتِهِ ويُؤَهِّلُهُ لروايةِ حكايات.

4. الحكي والسّفر

إنّ ما يَصِلُ الحكيَ بالسّفر، في حكايةِ السندباد البَحريّ، شديدُ التشعُّب والتشابُك. وهو أمْرٌ لا يقتصرُ على هذه الحكاية وَحْدَها، بل يَسِمُ، بوَجْهٍ عامّ، الحَكيَ في كتاب «ألف ليلة وليلة»، الذي يُعَدُّ مِنَ

الكُتُب التي كشَفَت عن أسْرار الحَكي وعَوَالمِه، ورَسَّخَتِ الوَعيَ بكَوْنه سُلطةً نافذةً تَعْلُو على كُلّ السُّلَط، وقُوّةً قادرةً على إحداثِ التغيير في الذوات والمَواقف، وفي مُختلف مَناحي الحَيَاة.

لَعَلّ أوّلَ سِمَةٍ للتّشابُك القائم بَيْنَ الحَكي والسَّفر، في حكاية السندباد البَحْريّ، هو المَلمحُ الدائريُّ الذي يَحكُمُ العلاقةَ بَينهُما؛ فهذا المَلمحُ ضَالعُ الحُضُور في الحكاية، إذ تتعدَّدُ تجلّياتُه فيها، كما لوْ أنّ أثرَ بنية المتاهة مُمتدٌّ فيه. لقد تمَّ الإلماحُ سابقاً إلى بَعْض هذه التجلّيات، ويمْكِنُ مُواصلةُ الإشارَة إلى غَيْرها اعتماداً على ما يَصِلُ الحَكيَ بالسّفر. ما يَتعيّنُ التشديدُ عليه، في إضاءَة هذا الأمْر، هو أنّ رَغبةَ السندباد في السّفر لمْ تكُن مُتَحصّلة، في البَدء، عن نُزوعٍ إلى التّجَدُّد وحسب، بل تولَّدتْ أيضاً بإيعاز مِنْ حكاية تذكّرَها[1]، وَفقَ ما تضمَّنَهُ الإطارُ العامّ لقصّته. فبَعْد أنْ بدّدَ السندبادُ البَحريّ الثروةَ التي تَركها لهُ والدُهُ، وانتبهَ، كما عبَّرَ هو نفسُهُ، إلى أنّ مالَهُ قد مال وحالَهُ قد حال، تذكّرَ حكايةَ سُليمان بن داود، التي كانَتْ سبَبَ اتّخاذه قرارَ السَّفر. إنّ السّفرَ، في هذه الحال، مُترتِّبٌ، إذاً، على حكاية، قبْل أنْ يُنتجَ هو أيضاً حكايَتَهُ. مِنَ الحَكي تولَّدَتِ الرَّغبةُ في السّفر، الذي قادَ بدَوره إلى امتلاكِ القُدرة على الحَكي، وعلى إنتاجِ حكايات. الحَكيُ هو المُوَلِّدُ لرَغبةِ السّفر، والسّفرُ هو ما يُمكِّنُ السندبادَ البَحريّ مِنَ الحَكي. فالعلاقةُ بين الحَكي والسَّفر دائريّة.

بناءً على هذه العلاقة الدائريّة، تبدو حكايةُ السندباد ناجمةً، هي ذاتُها، عمّا ترتَّبَ على تذكّره لحكاية أيْقظَت لدَيْه الرّغبة في السّفر. وهو ما يُفضي إلى الإقرار أنّ الحكيَ كان حاسماً، بوَجْه عامّ، في حَياة السندباد البَحريّ، كما لوْ أنّ هذه الحياةَ نِتاجٌ للحَكي لا العَكس. لهذا

(1) اللافت أنّ هذا التذكّر تعزَّزَ بتذكُّر ثلاثة أبيات شعريّة، على نَحْو يَكشِفُ، في هذه الحالة، عن التآخي بين الحَكي والشِّعر. ذلك أنّ العلاقة بينهُما تأْخُذُ، في حكاية السندباد البَحريّ، أكثرَ مِنْ وَجه. يُمكنُ أنْ نُميّزُ بين وَجهيْن؛ الأوّل قائمٌ على التعارُض، فيه يَسْعَى الحكيُ إلى نَسْخ حمولة الشِّعر، والثاني قائمٌ على التآخي، خُصُوصاً عندما يَشتَرِكَان في أداءِ وظيفةِ الدليل، أي عندما يَستهدي بهما السندبادُ البَحريّ في اتّخاذ القرار.

الأمْر امتداداتُهُ حتى داخلَ حكايةِ السندباد البَحريّ، إذ كثيراً ما كان السندبادُ يَعثرُ على تفسيرٍ لوَقائعَ تُصادفُهُ في سَفراته اعتماداً على تَذَكُّره لحكايات، فتكونُ المواقفُ مُترتّبةً على الحكايات لا العَكس. وكثيراً ما كان يَلجأ إلى روايةِ حكايةٍ مِنَ الحكايات داخلَ سَفراته، على نحوٍ يُتيحُ الحديثَ، في هذه السّفرات، عَن الحَكي المُخلِّص، الذي يَظلُّ مَشدوداً بخُيوطٍ رَفيعةٍ إلى ما يَصِلُهُ بعلاقةِ شهرزاد بشهريار. أبْعدَ مِنْ ذلك، فقدْ تحوَّلَ السندبادُ البَحريّ أثناء سفراته، في أكثر مِنْ مُناسَبة، إلى مُسْتَمِعٍ لحكايته وهي تُرْوَى لهُ، وتُخبرهُ أنّهُ شَخصٌ لقيَ حتفَهُ في البَحر، فيَصيرُ سَماعُه لحكايته، التي يَكونُ فيها في عِداد الأموات، دافعاً مُوقِظاً لرَغْبَتِه في التعريف بنَفْسِه، وحافزاً على استِرْجاعِ، لا بضاعَتِه التي تَرَكها في المَركب وحسب، بل استرجاع حَيَاته، وهو ما كانَ يُلزِمُهُ بروايةِ تفاصيلَ دقيقةٍ مِنْ حكايته كيْ يتسنَّى لهُ أنْ يُقنعَ قائدَ المركب بأنَّ الأمتعةَ ملكٌ لهُ، وكي يتأتَّى لهُ، بفَضْلِ السَّرد وقُوّةِ الحَكي، أنْ يَعودَ مِنَ المَوْت ويَغدُوَ حيّاً مِنْ جَديد. إنّ العَودةَ من المَوت[1]، بتأثيرٍ مِنَ الحكي، ليْسَتْ سِوَى مَلمَحٍ مِنْ مَلامِح الوَشيجَةِ الصامتَةِ بين حكايةِ السندباد البَحريّ وعلاقةِ شَهرزاد بشهريار. إنّها وَشيجَةٌ بَيّنَةٌ مِنْ قُدْرَةِ الحَكي على تأمينِ الحَياة واستعادَتِها مِنْ قَلْبِ المَوت[2].

تَسمَحُ حكايةُ السندباد، بناءً على ما تقدَّم، بالتمييز فيها بَيْنَ

---

(1) للعَوْدَة مِنَ المَوت تجلياتٌ عديدةٌ في حكاية سندباد البَحريّ. وهي أحدُ المواقع القرائيّة الواعدة في تأوُّل الحكاية. مِنْ أهمّ تجلّيات هذه العَودة، مسألة دَفن الأحياء مثلاً. ذلك ما خبرهُ السندباد البَحريّ تجربةً لمّا دُفنَ حيّاً إلى جوار زَوجته التي فارَقت الحياة، على نَحوٍ «أتاحَ» له مُجاوَرةَ المَوت قبْل أنْ يَهتديَ إلى كوّةٍ تقودُ إلى الحياة. إنّ دلالاتِ مُجاوَرَة المَوت ودلالاتِ العَودَة منهُ شديدةُ الخُصوبة، في تجربة السندباد البَحريّ، لِما تفتحُهُ من دُروبٍ للتأويل.

(2) لا نَعثرُ على هذه الوشيجَة، التي تظهرُ داخل الحكاية وليس في علاقة السندباد البَحريّ بالسندباد البرّيّ، بَين ما يَحكمُ، العلاقتيْن المَركزيّتيْن في الحكاية؛ علاقة شهرزاد بشهريار وعلاقة السندباد البَحريّ بالسندباد البرّيّ. ذلك أنّ ما يَحكمُهما يَبدُو، كما قال كيليطو، مَعكوساً. في العلاقة الأولى، الضَّعيفُ مَنْ يتكفّلُ بالحَكي، أمّا في حكايةِ السندباد، فالقويُّ مَنْ ينهضُ به. أُنظر: عبد الفتاح كيليطو، الأعمال، الجزء الثاني، الماضي حاضراً، م. س.، ص. 96.

نمَطيْن مِنَ الحَكي. أوّلهما؛ الحكيُ الباني لها مِنَ الدّاخل، أي الحَكيُ بما هو جُزءٌ مِنَ كلِّ سفرة وجُزءٌ مِنَ المُغامَرة، باعتباره يَتمُّ داخلَ السَّفر ويُسْهمُ في الوَقائع والمَواقف ونمُوِّ الأحداث، على نَحوٍ يكشِفُ التشابُكَ الحَيويَّ بَيْنَ الحكي والسّفر. وثانيهما؛ الحَكي الخارجيّ، ويَتضمّنُ لحظتيْن، اللحظة التي كانَ الحكيُ فيها يَلي مُباشَرةً كلَّ سفرة، وفيه يَرْوي السندبادُ لأهْلِه وصَحْبِه ما وَقَعَ لهُ في السّفرة، ثمّ اللحظة المُرتبطة بإعادة الحَكي، وهي التي تمّت في سَبعة أيّام، بسبَب لقاءِ السندباد البَحريّ بالسندباد البرّيّ، الذي كانَ، وإنْ أنْصتَ للحكايات في مَجْلسٍ ضَمَّ أصحابَ السندباد البَحريّ، المُتلقّي الفعليَّ المَقْصُودَ مِنْ إعادةِ روايةِ الحكايات، التي غَدَتْ، في هذه الحال، حكايةَ حياةٍ كاملة[1]. فالنّمطُ الثاني مِنَ الحَكي كانَ يَتضمّنُ، لا فقط الحَكيَ الذي قامَ به السندبادُ البَحريّ في سياقاتٍ مُختلفة أثناء سفراته، بل أيْضاً الحكايات برُمَّتها، ما دامَ يُعيدُها للسندباد البرّيّ بوَجْهٍ خاصّ.

ما الداعي، عُموماً، الذي دَفعَ السندبادَ البَحريّ إلى أنْ يُعيدَ روايَةَ حكايتِه؟ لا يَشرَعُ السندبادُ البَحريّ في إعادة حكايتِه بناءً على طلَبٍ أو سُؤالٍ تلقّاهُ مِن جهة ترغَبُ في الإنصات للحكاية. ذلك أنّ السَّردَ يَتولَّدُ، في الغالب العامّ، بناءً على طَلَبٍ صَريح أو ضِمْنيٍّ يَكشِفُ عَن الرغبة في السماع. وهو أمْرٌ مُتحكِّمٌ، بمَعنى ما، في علاقةِ شهرزاد بشهريار. كما أنّ ساردَ الحكاية، أيِّ حكاية، يَحرصُ دَوْماً، في بنائه لها، على تَجديدِ رَغبةِ المُتلقّي في السماع، وعلى تقويّة هذه الرغبة، بما يَمنعُ مِن انطفائها وخُمودها، ذلك أنّ توَقُّدَ هذه الرَّغبة أساسُ التعاقُدِ بَيْنَ السارد والمُتلقّي، وأساسُ استِمْرَار الحَكْي. لا تُصرِّحُ حكايةُ السندباد البَحريّ بطَلَبِ تلقّاهُ صاحبُها وحَثَّهُ على روايَتِها، لكنّ عدمَ التصريح بالطلب لا يَعنِي غيابَهُ، أو بدقّة أكبر، لا يَعْني عدمَ حِرْص السندباد البَحريّ على تَوْليدِه واتّخاذِه تَعِلّةً لانطلاق الحَكي. لابدّ، إذاً، مِنَ الانتباه

(1) لا ينبغي أيضاً أنْ نَنْسَى، في هذا السياق، أنّ المتلقّي الفعليَّ للحكايات هو شهريار.

إلى أنّ السندبادَ البَحريَّ عندما أرسلَ غُلامَهُ لدَعوة السندباد البرّيّ إلى قلْبِ المَنزل، طَلَبَ منْ هذا الأخير أنْ يُعيدَ إنشادَ الأبيات الشعريّةَ التي سَبقَ للسندباد البرّيِّ أنْ أنشدَها وهو بالبَاب. إنّ طلبَ إعادة الإنشاد هو، في العُمق، مُسَوِّغُ إعادة السندباد البَحريّ رواية حكايته[1]، التي سَبق أنْ سَردَها مُتقطِّعةً عقبَ كلِّ عَوْدَةٍ منْ إحْدَى سفراته السَّبْع. إنّهُ يُعيدُ روايتَها مُتتاليةً، في سَبعة أيّام، للسندباد البرّيّ بوَجْهٍ خاصّ، بَعد مُطالبَته بإعادَة الأبيات التي فيها عثرَ السندبادُ البَحريّ على سُؤالٍ ضمْنيّ. كأنّ السندبادَ البرّيّ كان يَتوَجَّهُ، بما تَضمّنَتْهُ الأبياتُ منْ مَعْنى، إلى السندباد البَحريّ بالسُّؤال التالي: كيف تَسْعَدُ بهذه النِّعَم دُون جهدٍ أو مَشقّة، وكيفَ أشقى في التعاسة رغم أن حِمْلي لا مَثيل له؟ وهو ما ردَّ عليه السندباد البَحريّ بالقول: «يا حمّال اعلم أنّ لي قصّةً عجيبةً، وسَوف أخبرُك بجَميع ما صارَ لي وما جرَى لي من قبْل أنْ أصيرَ إلى هذه السعادة وأجلسَ في هذا المكان الذي تراني فيه. فإنّي ما وَصَلتُ إلى هذه السّعادة وهذا المكان إلّا بَعْدَ تَعَب شديد، ومشقّةٍ عظيمةٍ، وأهوالٍ كثيرة. وكم قاسيْتُ منَ التّعَب والنّصَب».

هكذا انطلقَتْ روايةُ الحكايةِ ناسخةً مَضْمُونَ الأبيات الشعريّة، كما سبَقَت الإشارة. كلُّ حكايةٍ من حكايات السّفرات السّبع كشفَتْ عَنْ مَشاقّ وشدائدَ وأهْوالٍ وَفقَ تَدرُّجٍ بَينِّ، إذ انتظمَ اعتماداً على الانتقال منْ مُصيبَةٍ إلى أخرى أشدَّ وأصعَبَ. إنّ ثمَّة، أبْعدَ منْ ذلك، تَدَرُّجاً لا في حِدَّة المَصائب وحسب، بل في صيَغ المَوت أيضاً. في كُلِّ سفرَةٍ لاحقةٍ، تتبدَّى فداحةُ الموت، حتى غَدَتْ عبارةُ «إنّ هذا الموتَ أصعبُ من المَوت الأوّل» مألوفةً لدى قارئ الحكاية. تَنطوي كلُّ سفرة لاحقةٍ على ما يَتجاوَزُ سابقتَها في حدَّةِ الموت. مِنْ مِيتَةٍ إلى مِيتَةٍ، كانتِ

(1) ثمّة ما هو أعمقُ مِنْ هذا المُسَوِّغ، إذ يتعلّقُ الأمرُ بنُزوع أصيل، في كيان السندباد البَحريّ، إلى السّفر. وبذلك، لمْ يَعمل، في الأصْل، إلّا على خلْقِ تَعلّةٍ كيْ ينطلِقَ في الحَكي لسَبَبَيْن على الأقلّ. السَّبَبُ الأوّل، تحويل ما سَبقَ أنْ رَواهُ مُتقطِّعاً إلى حكايةٍ مُتتالية. السَّببُ الثاني، اسْتحضارُ السَّفر ولو عبْرَ الحَكي، بعْدَ أنْ كفَّ عنْ أنْ يكونَ تجربةً مَلمُوسة. كأنّ الأمْرَ تمديدٌ لنُزُوع السندباد البَحريّ إلى السَّفر، ولكن بالحَكي وعبْرَ الحكي.

الفظاعةُ تشتدُّ وتتضخَّم، إلى أنْ فقدَ ادّعاءُ السِّندباد البرّيّ، القائمُ على أنّ حِمْله بلا مثيل، مصداقيّتَهُ، وبَدا بلا مَعنى. لرُبَّما كانَ التكرارُ اللافت للفظ «الحمول»، في بدايةِ كلِّ سفرة، يَرُومُ، ضِمنيّاً، نَسْخَ الحمول البَرّيّة، وتجريدَ السندباد البرّيّ مِنْ صِفةِ «الحمّال» كلّما اقترنَ الحِمْلُ بالماء، أي بالبَحر[1].

لقد احتكمَتْ كلُّ حكايةٍ مِنَ الحكايات السَّبع إلى بنية شبْه قارَّة. بنيةٌ لا تَنفصلُ عَنْ نمُوِّ المعنى وَفق قانون نَسْخ ما تَضمَّنَتْهُ الأبياتُ الشعريّة. ومع ذلك، فهذا القانونُ، على أهمّيّته، ليس هو ما يتحكّمُ، في الأصل، في عناصر هذه البنية. إنّ ما يتحكّمُ فيها أساساً هو السَّفر، إذ ليْسَت سِوَى مَلمح مِنْ مَلامح التشابُك القائم بَيْنَهُ وبَينَ الحكي. مُنذ حكايةِ السّفرة الثانيةَ، التي استعادَتْ، بوَجْه عامّ، مُتواليات حكايةِ السّفرة الأولى، يُدْرِكُ القارئُ العناصرَ الثابتةَ في هذه البنية، التي لن تكُفّ عن التَّواتُر في باقي الحكايات. لقد انتظمَتْ هذه البنية وَفقَ المتواليات الآتية: الشوقُ إلى السّفر، حَزمُ الأمتعة، انطلاقُ الرِّحلة مَوسومةً في البَدْء بالهدوء والسكينة، حُدوثُ ما يُحطِّمُ المَركب أو ما يجعل السندباد البَحريّ يتخلَّفُ عن اللحاق به، انطلاقُ مَرحلة التيه التي يكونُ فيها السندبادُ وَحيداً ومُجرَّداً من كلِّ شيء، مُكابدةُ أشقِّ الأهوال والعيش على حافة الموت، بلوغُ أقصى العوالم واكتشافُ الغريب والعجيب فيها، الظفر بأشياء نفيسة، بدايةُ الانفراج باهتداء السندباد البَحريّ إلى مَنْ يُساعدَهُ على العَودة إلى موطنه الأوّل. إنَّ بنية الحكاية مُستمدّةٌ، وفق ما هو بَيِّنٌ مِنْ مُتواليا‌تها، مِنْ أطوار السَّفر. كما أنّ الغُنمَ بالغريب، بوَصفه مُوَجِّهاً لهذه المُتواليات، ناجمٌ عن السَّفر، حتّى إنّ انتسابَ حكاية السندباد إلى الغرائبيّ مَشدودةٌ إلى

(1) لكيليطو تأويلٌ عميقٌ في هذا السياق، إذ تنبّهَ إلى أنّ السندبادَ البرّيَّ، حتى وإنْ وَضَعَ حمْلهُ على مصطبة الباب، لمْ يَفقد صِفةَ الحمّال، لأنّه انتقلَ إلى الاضطلاع بحمْل آخَر، حملِ حكاية السندباد البَحريّ، التي كان ثقلها يزدادُ يَوماً بَعد يوم أثناء سماع السندباد البرّيّ لها. لَعَلّ هذا التأويل هو ما حدا بكيليطو إلى عَنْوَنَةِ الجُزء الرابع من أعماله على النَّحو التالي: «حمّالو الحكاية». اُنظُر: عبد الفتاح كيليطو، الأعمال، الجزء الرابع، حمّالو الحكاية، م. س.، ص. 69.

مُفارَقةِ المكان الأولّ، أي إلى الترحال.

إنّ للتشابُكِ القائم بَينْ الحَكي والسَّفر، في حكايةِ سندباد البَحريّ، وُجوهاً عديدةً، لأنّ هُوِيّةَ شخصيّة السندباد البَحريّ غَيرُ قابلة للتحديد مَفصولةً عن السَّفر. فالسندبادُ البَحريّ مِسْفَارٌ، إنُّهُ مُنجَذبٌ، في كيانه العَميق، إلى التّرحال. إنَّ التساؤلَ، تبعاً لذلك، عمَّا يُسْفِرُ عنهُ السّفَرُ لدى هذه الشخصيّة المَسكونَة به يَفتحُ مُحاوَلةَ الجَواب عن هذا التساؤُل على دُرُوب تأويليّة عديدة، وَفق قُدرة كلِّ قراءة على استكناه أسْرار السَّفر، واستكناه علاقته بالحَكي. لرُبَّما يُسْفرُ السَّفَرُ لدى السندباد البَحريّ، مِن بَين ما يُسْفرُ عنه، عن تَجربة حَدِّيَّة لا تتوانى عَنْ مُلامَسة الموت ومُجاوَرَته، بغَاية الاقتراب منْ عُمق الحياة والتحقُّق من استيعابها بوَصْفها مُخاطرَة. ولرُبّما يُسْفرُ، أيْضاً، عن الحَكي، الذي به يَضمَنُ السندبادُ إقامَتَهُ في ذكرَى السَّفر، وبه يُؤمّنُ الانتقالَ إلى خَيالَ السَّفرِ الذي تُتيحُهُ اللُّغة، بَعْدَ أنْ توقّفَ الترحالُ، وكفَّ عن أنْ يكونَ تجربةً حياتيّة مَلمُوسة.

بالجُملة، إنّ حكايةَ سندباد البَحريّ، المَفتوحةَ دَوماً على التّحيين القرائيِّ، تَبْني مَفهوماً مُتطوِّراً للتجربة.. مَفهوماً يتقاطعُ مع التصوُّرات الحديثة. مِنْ معاني التجربة، في هذه الحكاية، كونُها اختباراً للذات على حُدُود الموت. التجربة مُخاطرَةٌ. الخطرُ فيها جُزءٌ مِنَ النّجاة، والاهتداءُ إلى غُنْمها مُتحصّلٌ مِنَ التّيه وناجمٌ عنه.

خالد بلقاسم



حكايات السندباد

قالت: بلغني أنه كان في زمن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد، بمدينة بغداد، رجل يقال له السندباد الحمَّال، وكان رجلاً فقير الحال يحمل تاجرته على رأسه، فاتَّفق له أنه حمل، في يوم من الأيّام، حملة ثقيلة، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، تعب من تلك الحملة، وعرق، واشتدّ عليه الحرّ، فمرّ على باب رجل تاجر قدّامه كنس ورشّ، وهناك هواء معتدل، وكان بجانب الباب مصطبة عريضة، فحطّ الحمَّال حملته على تلك المصطبة ليستريح ويشمّ الهواء.

وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (525)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن الحمَّال لمّا حطّ حملته على تلك المصطبة ليستريح، ويشمّ الهواء، خرج عليه من ذلك الباب نسيم رائق ورائحة ذكية فاستلذّ الحمَّال لذلك، وجلس على جانب المصطبة، فسمع في ذلك المكان نغم أوتار وعود وأصوات مطربة وأنواع إنشاد معربة، وسمع- أيضاً- أصوات طيور تناغي وتسبِّح الله (تعالى) باختلاف الأصوات وسائر اللّغات، من قماري وهزار وشحارير وبلبل وفاخت وكروان، فعند ذلك تعجَّب في نفسه، وطرب طرباً شديداً، فتقدَّم إلى ذلك فوجد داخل البيت بستاناً عظيماً، ونظر فيه

غلماناً وعبيداً وخدماً وحشماً وشيئاً لا يوجد إلّا عند الملوك والسلاطين، وبعد ذلك هبطت عليه رائحة أطعمة طيِّبة زكية من جميع الألوان المختلفة والشراب الطيِّب، فرفع طَرْفه إلى السماء، وقال: سبحانك يا ربّ، ياخالق يا رازق، ترزق من تشاء بغير حساب. اللهمَّ إني أستغفرك من جميع الذنوب، وأتوب إليك من العيوب. يا ربّ، لا أعترض عليك في حكمك وقدرتك، فإنك لا تُسأل عمّا تفعل، وأنت على كلّ شيء قدير. سبحانك، تغني من تشاء، وتفقر من تشاء، وتعزّ من تشاء، وتذلّ من تشاء، لا إله إلّا أنت. ما أعظم شأنك! وما أقوى سلطانك! وما أحسن تدبيرك! قد أنعمت علي من تشاء من عبادك، فهذا المكان صاحبه في غاية النعمة، وهو متلذِّذ بالروائح اللطيفة والمآكل اللذيذة والمشارب الفاخرة في سائر الصفات، وقد حكمت في خلقك بما تريد وما قدَّرته عليهم؛ فمنهم تعبان، ومنهم مستريح، ومنهم سعيد، ومنهم من هو مثلي في غاية التعب والذّل، ثم أنشد يقول:

فكم من شقيٍّ بلا راحةٍ ينعم في خير فيَء وظلِّ
وأصبحت في تعب زائدٍ وأمري عجيب، وقد زاد حملي
وغيري سعيد بلا شقوةٍ وما حَمَل الدهر يوماً كحملي
ينعم في عيشة دائماً ببسط وعزٍّ وشربٍ وأكلِ
وكلّ الخلائق من نطفةٍ أنا مثل هذا، وهذا كمثلي
ولكن شتّان ما بيننا! وشتّان بين خمر وخلِّ!
ولست أقول عليك افتراءً فأنت حكيم حكمت بعدلِ

فلما فرغ السندباد الحمَّال من شعره ونظمه، أراد أن يحمل حملته ويسير، إذ قد طلع عليه من ذلك الباب غلام صغير السنّ حسن الوجه مليح القدّ فاخر الملابس، فقبض على يد الحمَّال، وقال له: ادخل، كلِّم سيِّدي فإنه يدعوك. فأراد الحمَّال الامتناع من الدخول مع الغلام فلم يقدر على ذلك، فحطَّ حملته عند الباب في دهليز المكان، ودخل مع

الغلام الدار، فوجد داراً مليحة، وعليها أنس ووقار، ونظر إلى مجلس عظيم فنظر فيه من السادات الكرام والموالي العظام، وفيه من جميع أصناف الزهر وجميع أصناف المشموم ومن أنواع النقل والفواكه وشيء كثير من أصناف الأطعمة النفيسة، وفيه مشروب من خواصّ دوالي الكرام، وفيه آلات السماع والطرب ومن أصناف الجواري الحسان، كلٌّ منهم في مقامه، على حسب الترتيب. وفي صدر ذلك المجلس رجل عظيم محترم قد لكزه الشيب في عوارضه، وهو مليح الصورة حسن المنظر وعليه هيبة ووقار وعزّ وافتخار. فعند ذلك، بهت السندباد الحمَّال وقال في نفسه: والله، إن هذا المكان من بقع الجنان، أو أنه يكون قصر ملك أو سلطان، ثم تأدَّب وسلَّم عليه، ودعا لهم، وقبَّل الأرض بين يديهم، ووقف وهو منكِّس راسه.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (526)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد الحمَّال لمّا قبَّل الأرض بين أيديهم، وقف منكَّس الرأس متخشّع، فأذن له صاحب المكان بالجلوس فجلس، وقد قرَّبه إليه، وصار يؤانسه بالكلام ويرحِّب به، ثم إنه قدَّم له شيئاً من أنواع الطعام المفتخر الطيِّب النفيس، فتقدَّم السندباد الحمَّال وسمَّى وأكل حتى اكتفى وشبع، وقال: الحمد لله على كلّ حال، ثم إنه غسل يديه وشكرهم على ذلك. فقال صاحب المكان: مرحباً بك، ونهارك مبارك. فما يكون اسمك؟ وما تعاني من الصنائع؟ فقال له: يا سيِّدي، اسمي السندباد الحمَّال، وأنا أحمل على رأسي أسباب الناس بالأجرة، فتبسَّم صاحب المكان وقال له: اعلمْ- يا حمَّال- أن اسمك مثل اسمي، فأنا السندباد البحري، ولكن- يا حمَّال- قصدي أن تسمعني الأبيات التي كنت تنشدها وأنت على الباب، فاستحى الحمَّال وقال له: بالله عليك، لا تؤاخذني فإن التعب والمشقّة وقلّة ما في اليد تعلِّم الإنسان قلّة الأدب والسفه. فقال له: لا تستحي، فأنت صرت أخي، فأنشدْ هذه الأبيات فإنها أعجبتني لمّا سمعتها منك، وأنت تنشدها على الباب؛ عند ذلك، أنشده الحمَّال تلك

الأبيات فأعجبته وطرب لسماعها، وقال له: اعلم أن لي قصّة عجيبة، وسوف أخبرك بجميع ما صار لي وما جرى لي من قبل أن أصير في هذه السعادة، وأجلس في هذا المكان الذي تراني فيه، فإني ما وصلت إلى هذه السعادة وهذا المكان، إلّا بعد تعب شديد ومشقّة عظيمة وأهوال كثيرة، وكم قاسيت في الزمن الأوَّل من التعب والنصب! وقد سافرت سبع سفرات، وكلّ سفرة لها حكاية تحيِّر الفكر. وكلّ ذلك بالقضاء والقدر، وليس من المكتوب مفرّ ولا مهرب.

الحكاية الأولى
(أوَّل السفرات)

اعلموا- يا سادة يا كرام- أنه كان لي أب تاجر، وكان من أكابر الناس والتجّار، وكان عنده مال كثير ونوال جزيل، وقد مات وأنا ولد صغير، وخلَّف لي مالاً وعقاراً وضياعاً. فلمّا كبرت وضعت يدي على الجميع، وقد أكلت أكلاً مليحاً، وشربت شراباً مليحاً، وعاشرت الشباب، وتجمّلت بلبس الثياب، ومشيت مع الخلّان والأصحاب، واعتقدت أن ذلك يدوم لي وينفعني، ولم أزل على هذه الحالة مدّةً من الزمان. ثم إني رجعت إلى عقلي، وأفقت من غفلتي فوجدت مالي قد مال، وحالي قد حال وقد ذهب جميع ما كان عندي، ولم أستفق لنفسي إلّا وأنا مرعوب مدهوش، وقد تفكَّرت حكاية كنت أسمعها سابقاً، وهي حكاية سيِّدنا سليمان بن داود (عليه السلام) في قوله: ثلاثة خير من ثلاثة، يوم الممات خير من يوم الولادة، وكلب حيّ خير من سبع ميِّت، والقبر خير من القصر.

ثم إني قمت وجمعت ما كان عندي من أثاث وملبوس وبعته، ثم بعت عقاري وجميع ما تملك يدي، فجمعت ثلاثة آلاف درهم، وقد خطر ببالي السفر إلى بلاد الناس، وتذكَّرت كلام بعض الشعراء حيث قال:

بقدر الكدّ تُكتَسب المعالي ومَنْ طلب العلا سهر الليالي
يغوص البحر من طلب اللآلئ ويحظى بالسيادة والنوالِ
ومَنْ طلب العلا من غير كَدٍّ أضاع العمر في طلب المحالِ

فعند ذلك، هممت فقمت واشتريت لي بضاعة ومتاعاً وأسباباً وشيئاً من أغراض السفر، وقد سمحت لي نفسي بالسفر في البحر، فنزلت المركب وانحدرت إلى مدينة البصرة مع جماعة من التجّار وسرنا في البحر أيّاماً ولياليَ، وقد مررنا بجزيرة بعد جزيرة ومن بحر إلى بحر ومن برٍّ إلى بَرّ. وفي كلّ مكان مررنا به نبيع ونشتري ونقايض بالبضائع فيه، وقد انطلقنا في سير البحر إلى أن وصلنا إلى جزيرة كأنها روضة من رياض الجنّة، فأرسى بنا صاحب المركب على تلك الجزيرة، ورمى مراسيها وشدَّ السقالة، فنزل جميع من كان في المركب في تلك الجزيرة، وعملوا لهم كوانين، وأوقدوا فيها النار، واختلفت أشغالهم؛ فمنهم من صار يطبخ، ومنهم من صار يغسل، ومنهم من صار يتفرَّج، وكنت أنا من جملة المتفرِّجين في جوانب الجزيرة. وقد اجتمع الركَّاب على أكل وشرب ولهو ولعب. فبينما نحن على تلك الحالة، وإذا بصاحب المركب واقف على جانبه، وصاح بأعلى صوته: يا ركّاب السلامة، أسرعوا واطلعوا إلى المركب، وبادروا إلى الطلوع، واتركوا أسبابكم، واهربوا بأرواحكم، وفوزوا بسلامة أنفسكم من الهلاك؛ فإن هذه الجزيرة التي أنتم عليها ما هي جزيرة وإنما هي سمكة كبيرة رست في وسط البحر، فبنى عليها الرمل فصارت مثل الجزيرة وقد نبتت عليها الأشجار من قديم الزمان، فلما أوقدتم عليها النار أحسَّت بالسخونة فتحرَّكت، وفي هذا الوقت تنزل بكم في البحر فتغرقون جميعاً، فاطلبوا النجاة لأنفسكم قبل الهلاك.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (527)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن ريِّس المركب لمّا صاح على الركّاب وقال لهم: اطلبوا النجاة لأنفسكم، واتركوا الأسباب، ولمّا سمع الركّاب كلام ذلك الريِّس، أسرعوا وبادروا بالطلوع إلى المركب، وتركوا الأسباب وحوائجهم ودسوتهم وكوانينهم، فمنهم من لحق المركب، ومنهم من لم يلحقه وقد تحرَّكت تلك الجزيرة ونزلت إلى قرار البحر بجميع ما كان عليها، وانطبق عليها البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، وكنت من جملة من تخلَّف في الجزيرة، فغرقت في البحر مع جملة من غرق، ولكن الله (تعالى) أنقذني ونجّاني من الغرق، ورزقني بقطعة خشب كبيرة من القطع التي كانوا يغسلون فيها فمسكتها بيدي، وركبتها من حلاوة الروح، ورفست في الماء برجلي مثل المجاذيف والأمواج تلعب بي يميناً وشمالاً. وقد نشر الريِّس قلاع المركب وسافر بالذين طلع بهم في المركب، ولم يلتفت لمن غرق منهم. ومازلت أنظر إلى ذلك المركب حتى خفي عن عيني، وأيقنت بالهلاك. ودخل عليَّ الليل وأنا على هذه الحالة، فمكثت على ما أنا فيه يوماً وليلة، وقد ساعدني الريح والأمواج إلى أن رست بي تحت جزيرة عالية وفيها أشجار مطلّة على البحر، فمسكت فرعاً من شجرة عالية، وتعلَّقت به بعدما أشرفت على الهلاك وتمسَّكت به إلى أن طلعت إلى الجزيرة، فوجدت في رجلي خدلاً وأثر أكل السمك في بطونهما، ولم أشعر بذلك من شدّة ما كنت فيه من الكرب والتعب، وقد ارتميت في الجزيرة وأنا مثل الميِّت وغبت عن وجودي، وغرقت في دهشتي، ولم أزل على هذه الحالة إلى ثاني يوم. وقد طلعت الشمس عليَّ، وانتبهت في الجزيرة فوجدت رجليَّ قد ورمتا، فسرت حزيناً على ما أنا فيه، فتارةً أزحف، وتارةً أحبو على ركبي. وكان في الجزيرة فواكه كثيرة، وعيون ماء عذب، فصرت آكل من تلك الفواكه، ولم أزل على هذه الحالة مدّة أيّام وليالٍ، فتنعنشت نفسي، ورُدَّت لي روحي، وقَوِيَت حركتي، وصرت أتفكَّر وأمشي في جانب الجزيرة وأتفرَّج بين الأشجار ممّا خلق الله (تعالى). وقد عملت لي عكّازاً من تلك الأشجار أتوكَّأ عليه. ولم أزل على هذه الحالة إلى أن تمشَّيت

يوماً من الأيّام في جانب الجزيرة، فلاحَ لي شبحٌ من بعيد فظننت أنه وحش أو أنه دابّة من دوابّ البحر، فتمشَّيت إلى نحوه، ولم أزل أتفرَّج عليه وإذا هو فرس عظيم المنظر، مربوط في جانب الجزيرة على شاطئ البحر، فدنوت منه، فصرخ عليَّ صرخة عظيمة، فارتعبت منه وأردت أن أرجع، وإذا برجل خرج من تحت الأرض، وصاح عليَّ، وتبعني وقال لي: من أنت؟ ومن أين جئت؟ وما سبب وصولك إلى هذا المكان؟ فقلت له: يا سيِّدي، اعلم أني رجل غريب، وكنت في مركب وغرقت أنا وبعض من كان فيها، فرزقني الله بقطعة خشب فركبتها وعامت بي إلى أن رمتني الأمواج في هذه الجزيرة. فلمّا سمع كلامي أمسكني من يدي، وقال لي: امشِ معي. فنزل بي في سرداب تحت الأرض، ودخل بي إلى قاعة كبيرة تحت الأرض وأجلسني في صدر تلك القاعة، وجاء لي بشيء من الطعام، وأنا كنت جائعاً فأكلت حتى شبعت واكتفيت، وارتاحت نفسي، ثم إنه سألني عن حالي وما جرى لي، فأخبرته بجميع ما كان من أمري من المبتدأ إلى المنتهى، فتعجَّب من قصَّتي. فلمّا فرغت من حكايتي، قلت: بالله عليك، ياسيِّدي، لا تؤاخذني، فأنا قد أخبرتك بحقيقة حالي وما جرى لي، وأنا أشتهي منك أن تخبرني من أنت، وما سبب جلوسك في هذه القاعة التي تحت الأرض، وما سبب ربطك هذه الفرس على جانب البحر، فقال لي: اعلم أننا جماعة متفرِّقون في هذه الجزيرة على جوانبها، ونحن سيّاس الملك المهرجان، وتحت أيدينا جميع خيوله. وفي كلّ شهر، عند القمر، نأتي بالخيل الجياد ونربطها في هذه الجزيرة من كلّ بكر، ونختفي في هذه القاعة تحت الأرض حتى لا يرانا أحد، فيجيء حصان من خيول البحر على رائحة تلك الخيل، ويطلع على البرّ فإن لم يرَ أحداً، يثب عليها ويقضي منها حاجته، وينزل عنها ويريد أخذها معه، فلا تقدر أن تسير معه من الرباط، فتصيح عليه ويضربها برأسه ورجليه ويصيح، فنسمع صوته، فنعلم أنه نزل عنها، فنطلع صارخين عليه، فيخاف وينزل البحر. والفرس تحمل وتلد مهراً أو مهرة تساوي خزنة مال، ولا يوجد لها نظير على وجه الأرض. وهذا وقت طلوع الحصان، وإن شاء الله (تعالى) آخذك معي إلى الملك المهرجان.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (528)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السايس قال للسندباد البحري: آخذك معي إلى الملك المهرجان وأفرِّجك على بلادنا. واعلم أنه لولا اجتماعك علينا ما كنت ترى أحداً في هذا المكان غيرنا، وكنت تموت كمداً، ولا يدري بك أحد، ولكن أنا أكون سبب حياتك ورجوعك إلى بلادك، فدعوت له وشكرته على فضله وإحسانه. فبينما نحن في هذا الكلام، وإذا بالحصان قد طلع من البحر وصرخ صرخة عظيمة، ثم وثب على الفرس فلمّا فرغ منها نزل عنها، وأراد أخذها معه فلم يقدر، ورفست وصاحت عليه فأخذ الرجل السايس سيفاً بيده ودرقة، وطلع من باب تلك القاعة، وهو يصيح على رفقته ويقول: اطلعوا إلى الحصان، ويضرب بالسيف على الدرقة، فجاء جماعة بالرماح صارخين، فجفل منهم الحصان وراح إلى حال سبيله، ونزل في البحر مثل الجاموس، وغاب تحت الماء. فعند ذلك، جلس الرجل قليلاً، وإذا هو بأصحابه قد جاؤوه، ومع كلّ واحد فرس يقودها، فنظروني عنده فسألوني عن أمري، فأخبرتهم بما حكيته له، وقربوا مني ومدّوا السماط وأكلوا، وعزموني، فأكلت معهم، ثم إنهم قاموا وركبوا الخيول، وأخذوني إلى مدينة الملك المهرجان، وقد دخلوا عليه وأعلموه بقصَّتي، فطلبني، فأدخلوني عليه وأوقفوني بين يديه، فسلَّمت عليه فردَّ عليَّ السلام ورحَّب بي وحيّاني بإكرام، وسألني عن حالي، فأخبرته بجميع ما حصل لي وبكلّ ما رأيته من المبتدأ إلى المنتهى. عند ذلك، تعجب ممّا وقع لي وممّا جرى لي، فعند ذلك قال لي: يا ولدي، والله لقد حصل لك مزيد السلامة، ولولا طول عمرك ما نجوت من هذه الشدائد، ولكن الحمد لله على السلامة. ثم إنه أحسن إليَّ وأكرمني وقرَّبني إليه وصار يؤانسني بالكلام والملاطفة، وجعلني عنده عاملاً في ميناء البحر وكاتباً على كلّ مركب عبرت إلى البرّ، وصرت واقفاً عنده لأقضي له مصالحه، وهو يحسن إليّ وينفعني من كلّ جانب، وقد كساني كسوة مليحة فاخرة، وصرت مقدَّماً عنده في الشفاعات وقضاء مصالح الناس، ولم أزل عنده مدّة طويلة. وأنا كلَّما أشقّ على

جانب البحر، اسأل التجّار والمسافرين والبحريين عن ناحية مدينة بغداد؛ لعل أحداً يخبرني عنها، فأروح معه إليها، وأعود إلى بلادي، فلم يعرفها أحد، ولم يعرف من يروح إليها، وقد تحيَّرت في ذلك وسئمت من طول الغربة. ولم أزل على هذه الحالة مدّة من الزمان إلى أن جئت يوماً من الأيّام، ودخلت على الملك المهرجان، فوجدت عنده جماعة من الهنود، فسلَّمت عليهم فردّوا علي السلام ورحَّبوا بي، وقد سألوني عن بلادي فذكرتها لهم، وسألتهم عن بلادهم فذكروا لي أنهم أجناس مختلفة؛ فمنهم الشاركية، وهم أشرف أجناسهم: لا يظلمون أحداً ولا يقهرونه، ومنهم جماعة تسمّى (البراهمة) وهم قوم لا يشربون الخمر أبداً، وإنما هم أصحاب حظّ وصفاء ولهو وطرب وجمال وخيول ومواشٍ، وأعلموني أن صنف الهنود يفترق على اثنين وسبعين فرقة، فتعجَّبتُ من ذلك غاية العجب!. ورأيت في مملكة المهرجان جزيرة من جملة الجزائر، يقال لها (كابل) يُسمَع فيها ضرب الدفوف والطبول، طول الليل. وقد أخبرنا أصحاب الجزائر والمسافرون أنهم أصحاب الجدّ والرأي. ورأيت في البحر سمكة طولها مئتا ذراع، ورأيت- أيضاً- سمكاً وجهه مثل وجه البوم، ورأيت في تلك السفرة كثيراً من العجائب والغرائب ممّا لو حكيته لكم لطال شرحه. ولم أزل أتفرَّج على تلك الجزائر وما فيها، إلى أن وقفت يوماً من الأيَّام على جانب البحر، وفي يدي عكّاز حسب عاداتي، وإذا بمركب قد أقبل وفيه تجّار كثيرون. فلمّا وصل إلى ميناء المدينة وفرضته، وطوى الريِّس قلوعه، وأرسله على البرّ، ومَدّ السقالة وأطلع البحرية جميع ما كان في ذلك المركب إلى البرّ، وأبطأوا في تطليعه، وأنا واقف أكتب عليهم، فقلت لصاحب المركب: هل بقي في مركبك شيء؟ فقال: نعم، يا سيّدي، معي بضائع في بطن المركب، ولكن صاحبها غرق معنا في البحر في بعض الجزائر، ونحن قادمون في البحر.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (529)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن الريِّس قال

للسندباد البحري أن صاحب هذه البضائع غرق، وصارت بضائعه معنا، فغرضنا أننا نبيعها ونأخذ ثمنها لأجل أن نوصله إلى أهله في مدينة بغداد، دار السلام، فقلت للريِّس: ما يكون اسم ذلك الرجل صاحب البضائع؟ فقال: اسمه السندباد البحري، وقد غرق معنا في البحر. فلمّا سمعت كلامه حقَّقت النظر فيه فعرفته، وصرخت عليه صرخة عظيمة، وقلت: يا ريِّس، اعلم أني أنا صاحب البضائع التي ذكرتها، وأنا السندباد البحري الذي نزلت من المركب في الجزيرة مع جملة مَنْ نزل من التجّار، ولمّا تحركت السمكة التي كنّا عليها وصحت أنت علينا، طلع من طلع وغرق الباقي، وكنت أنا من جملة من غرق، ولكن الله (تعالى) سلمني ونجَّاني من الغرق بقطعة كبيرة من القطع التي كان الركّاب يغسلون فيها، فركبتها وصرت أرفس برجلي، وساعدني الريح والموج إلى أن وصلت إلى هذه الجزيرة، فطلعت فيها وأعانني الله (تعالى) بسُيّاس الملك المهرجان، فأخبرته بقصَّتي، فأنعم عليَّ وجعلني كاتباً على ميناء هذه المدينة، فصرت أنتفع بخدمته، وصار لي عنده قبول، وهذه البضائع التي معك بضائعي ورزقي. قال الريِّس: لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم. ما بقي لأحد أمانة ولا ذمّة، فقلت له: يا ريِّس، ما سبب ذلك وأنك سمعتني أخبرتك بقصَّتي؟ فقال الريِّس: لأنك سمعتني أقول أن معي بضائع صاحبها غرق، فتريد أن تأخذها بلا حقّ، وهذا حرام عليك، فإننا رأيناه لمّا غرق، وكان معه جماعة من الركّاب كثيرون وما نجا منهم أحد، فكيف تدَّعي أنك أنت صاحب البضائع؟ فقلت له: يا ريِّس، اسمع قصَّتي، وافهم كلامي يظهر لك صدقي، فإن الكذب سمة المنافقين، ثم إني حكيت للريِّس جميع ما كان مني، من حين خرجت معه من مدينة بغداد إلى أن وصلنا تلك الجزيرة التي غرقنا فيها، وأخبرته ببعض أحوال جرت بيني وبينه، فعند ذلك تحقَّق الريِّس والتجّار من صدقي فعرفوني وهنّأوني بالسلامة، وقالوا جميعاً: والله، ما كنّا نصدِّق بأنك نجوت من الغرق، ولكن رَزَقك الله عمراً جديداً. ثم إنهم أعطوني البضائع، فوجدت اسمي مكتوباً عليها ولم ينقص منها شيء، ففتحتها وأخرجت منها شيئاً نفيساً غالي

الثمن، وحملته معي بحرية المركب، وطلعت به إلى الملك، على سبيل الهدية، وأعلمت الملك بأن هذا المركب هو الذي كنت فيه، وأخبرته أن بضائعي وصلت إليَّ بالتمام والكمال، وأن هذه الهدية منها. فتعجَّب الملك من ذلك الأمر غاية العجب، وظهر له صدقي في جميع ما قلته، وقد أحبَّني محبّة شديدة، وأكرمني إكراماً زائداً، ووهب لي شيئاً كثيراً في نظير هديِّتي، ثم بعت حمولتي وما كان معي من البضائع وكسبت فيها شيئاً كثيراً، واشتريت بضاعة وأسباباً ومتاعاً من تلك المدينة. ولمّا أراد تجّار المركب السفر، شحنت جميع ما كان معي في المركب، ودخلت عند الملك، وشكرته على فضله وإحسانه، ثم استأذنته في السفر إلى بلادي وأهلي فودَّعني وأعطاني شيئاً كثيراً، عند سفري، من متاع تلك المدينة، فودعته ونزلت المركب وسافرنا بإذن الله (تعالى)، وخدمنا السعد وساعدتنا المقادير. ولم نزل مسافرين ليلاً ونهاراً إلى أن وصلنا، بالسلامة، إلى مدينة البصرة، وطلعنا إليها وأقمنا فيها زمناً قليلاً، وقد فرحت بسلامتي وعودتي إلى بلادي. بعد ذلك، توجَّهت إلى مدينة بغداد، دار السلام، ومعي من الحمول والمتاع والأسباب شيء كثير له قيمة عظيمة. ثم جئت إلى حارتي، ودخلت بيتي، وقد جاء جميع أهلي وأصحابي، ثم إني اشتريت لي خدماً وحشماً ومماليك وسراري وعبيداً حتى صار عندي شيء كثير، واشتريت لي دوراً وأماكن وعقاراً أكثر من الأوَّل. ثم إني عاشرت الأصحاب، ورافقت الخلّان، وصرت أكثر ممّا كنت عليه في الزمن الأوَّل، ونسيت جميع ما كنت قاسيت من التعب والغربة والمشقّة وأهوال السفر، واشتغلت باللذّات والمسرّات والمآكل الطيِّبة والمشارب النفيسة، ولم أزل على هذه الحالة. وهذا ما كان في أوّل سفراتي، وفي غدٍ- إن شاء الله (تعالى)- أحكي لكم الثانية من السبع سفرات. ثم إن السندباد البحري عشّى السندباد البرّي عنده، وأمر له بمئة مثقال ذهباً، وقال له: آنستنا في هذا النهار، فشكره الحمَّال، وأخذ معه ما وهبه له وانصرف إلى حال سبيله، وهو متفكِّر فيما يقع وما يجري للناس، ويتعجَّب غاية العجب، ونام تلك الليلة في منزله. ولمّا أصبح الصباح، جاء إلى بيت السندباد البحري، ودخل عنده فرحَّب

بـه وأكرمـه وأجلسـه عنـده، ولمـا حـضر بقيّـة أصحابـه قـدَّم لهـم الطعـام والـشراب، وقـد صفـا لهـم الوقـت، وحصـل لهـم الطـرب، فبـدأ السـندباد البحـري بالـكلام، وقـال: اعلمـوا، يـا إخـواني، أننـي كنـت في ألـذّ عيـش وأصفـى سرور عـلى مـا تقـدَّم ذكـره لكـم بالأمـس.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.



الحكاية الثانية

(السفرة الثانية)

وفي الليلة (530)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا اجتمع عنده أصحابه، قال لهم: إني كنت في ألذّ عيش إلى أن خطر ببالي، يوماً من الأيَّام، السفرَ إلى بلاد الناس، واشتاقت نفسي إلى التجارة والتفرُّج في البلدان والجزائر واكتساب المعاش، فهممت في ذلك الأمر، وأخرجت من مالي شيئاً كثيراً اشتريت به بضائع وأسباباً تصلح للسفر، وحزمتها وجئت إلى الساحل، فوجدت مركباً مليحاً جديداً، وله قلع قماش مليح، وهو كثير الرجال زائد العدّة، وأنزلت حمولتي فيه أنا وجماعة من التجّار، وقد سافرنا في ذلك النهار وطاب لنا السفر. ولم نزل من بحر إلى بحر، ومن جزيرة إلى جزيرة، وكلّ محلّ رسونا عليه نقابل التجّار وأرباب الدولة والبائعين والمشترين، ونبيع ونشتري ونقايض بالبضائع فيه. ولم نزل على هذه الحالة، إلى أن ألقتنا المقادير

على جزيرة كثيرة الأشجار يانعة الأثمار فائحة الأزهار مترنمِّة الأطيار صافية الأنهار، ولكن ليس بها دَيّار ولا نافخ نار، فأرسى بنا الريِّس على تلك الجزيرة، وقد طلع التجّار والركّاب إلى تلك الجزيرة، يتفرَّجون على ما بها من الأشجار والأطيار، ويسبِّحون الله الواحد القهّار ويتعجَّبون من قدرة الملك الجبّار. فعند ذلك، طلعت إلى الجزيرة مع جملة من طلع، وجلست على عين ماء صاف بين الأشجار، وكان معي شيء من المأكل، فجلست في هذا المكان آكل ما قسم الله (تعالى) لي، وقد طاب النسيم بذلك المكان، وصفا لي الوقت فأخذتني سِنة من النوم فارتحت في ذلك المكان، وقد استغرقت في النوم وتلذَّذت بذلك النسيم الطيِّب والروائح الزكية، ثم إني قمت فلم أجد أحداً، لا من التجّار ولا من البحرية، فتركوني في الجزيرة، وقد التفتُّ فيها يميناً وشمالاً، فلم أجد بها أحداً غيري، فحصل عندي قهر شديد، ما عليه من مزيد، وكادت مرارتي تنفقع من شدّة ما أنا فيه من الغمّ والحزن والتعب، ولم يكن معي شيء من حطام الدنيا، ولا من المأكل ولا من المشرب، وصرت وحيداً، وقد تعبت في نفسي، ويئست من الحياة. بعد ذلك، قمت على حيلي وتمشَّيت في الجزيرة يميناً وشمالاً، وصرت لا أستطيع الجلوس في محلٍّ واحد. ثم إني صعدت على شجرة عالية، وصرت أنظر من فوقها يميناً وشمالاً، فلم أرَ غير سماء وماء وأشجار وأطيار وجزر ورمال، ثم حقَّقت النظر فلاحَ لي في الجزيرة شيء أبيض عظيم الخلقة، فنزلت من فوق الشجرة وقصدته وصرت أمشي إلى ناحيته، ولم أزل سائراً إلى أن وصلت إليه، وإذا به قبّة كبيرة بيضاء شاهقة في العلو، كبيرة الدائرة، فدنوت منها ودرت حولها، فلم أجد لها باباً، ولم أجد لي قوّة ولا حركة في الصعود عليها من شدّة النعومة، فعلمت مكان وقوفي، ودرت حول القبّة أقيس دائرتها فإذا هي خمسون خطوة وافية، فصرت متفكِّراً في الحيلة الموصلة إلى دخولها وقد قرب زوال النهار وغروب الشمس. وإذا بالشمس قد خفيت، والجوّ قد أظلم، واحتجبت الشمس عني، فظننت أنه جاء على الشمس غمامة، وكان ذلك في زمن الصيف، فتعجَّبت ورفعت رأسي وتأمَّلت في ذلك، فرأيت طيراً عظيم الخلقة كبير الجثة

عريض الأجنحة طائراً في الجوّ، وهو الذي غطّى عين الشمس وحجبها عن الجزيرة، فازددت من ذلك عجباً، ثم إني تذكَّرت حكاية.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (531)، بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا زاد تعجُّبه من الطائر الذي رآه في الجزيرة تذكَّر حكاية، أخبره بها-قديماً- أهل السياحة والمسافرون، وهي أن في بعض الجزائر طيراً عظيماً يقال له الرخّ، يزقّ أولاده بالأفيال، فتحقَّقت أن القبّة التي رأيتها إنما هي بيضة من بيض الرخّ؛ ثم إني تعجَّبت من خلق الله (تعالى). فبينما أنا على هذه الحالة، وإذا بذلك الطير نزل على تلك القبّة وحضنها بجناحيه وقد مَدَّ رجليه من خلفه على الأرض، ونام عليها، فسبحان من لا ينام!. عند ذلك فككت عمامتي من فوق رأسي، وثنيتها وفتلتها حتى صارت مثل الحبل وتحزَّمت بها، وشددت وسطي وربطت نفسي في رجليْ ذلك الطير، وشددتها شدّاً وثيقاً، وقلت في نفسي: لعلَّ هذا يوصلني إلى بلاد المدن والعمار، ويكون ذلك أحسن من جلوسي في هذه الجزيرة. وبتّ تلك الليلة ساهراً؛ خوفاً من أن أنام فيطير بي، على حين غفلة. فلمّا طلع الفجر، وبان الصباح قام الطائر من فوق بيضته، وصاح صيحة عظيمة وارتفع بي إلى الجوّ حتى ظننت أنه وصل إلى عنان السماء، وبعد ذلك تنازل بي حتى نزل إلى الأرض، وحَطَّ على مكان مرتفع عال، فلمّا وصلت إلى الأرض أسرعت وفككت الرباط من رجليه، وأنا خائف منه، ولم يحسّ بي. وبعد ما فككت عمامتي وخلّصتها من رجليه، وأنا أنتفض، مشيت في ذلك المكان ثم إنه أخذ شيئاً من وجه الأرض في مخالبه، وطار إلى عنان السماء فتأمَّلته، فإذا هو حيّة عظيمة الخلقة كبيرة الجسم قد أخذها وذهب بها إلى البحر، فتعجَّبت من ذلك. ثم إني تمشَّيت في ذلك المكان، فوجدت نفسي في مكان عال، وتحته وادٍ كبير واسع عميق، وبجانبه جبل عظيم شاهق في العلوّ، لا يقدر أحدٌ أن يرى أعلاه من فرط علوِّه، وليس لأحد قدرة على الطلوع فوقه، فلمت نفسي على ما فعلته

وقلت: يا ليتني مكثت في الجزيرة، فإنها أحسن من هذا المكان القفر، لأن الجزيرة كان يوجد فيها شيء آكله من أصناف الفواكه، وأشرب من أنهارها، وهذا المكان ليس فيه أشجار ولا أثمار ولا أنهار، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.. أنا كلّما انتهيت من مصيبة وقعت فيما هو أعظم منها وأشدّ. ثم إني قمت وقوَّيت نفسي، ومشيت في ذلك الوادي، فرأيت أرضه من حجر الألماس الذي يثقبون به المعادن والجواهر ويثقبون به الصيني والجزع وهو حجر صلب يابس لا يعمل فيه الحديد ولا الصخر، ولا أحد يقدر أن يقطع منه شيئاً، ولا أن يكسره إلّا بحجر الرصاص. وكلّ ذلك الوادي حيّات وأفاعٍ، وكلّ واحدة مثل النخلة، ومن عظم خلقتها لو جاءها فيل لابتلعته، وتلك الحيّات يظهرن في الليل، ويختفين في النهار خوفاً من طير الرخّ أو النسر أن يختطفها ويقطّعها، ولا أدري ما سبب ذلك!، فأقمت بذلك الوادي، وأنا متندِّم على ما فعلته، وقلت في نفسي: والله، إني قد عجَّلت بالهلاك على نفسي، وقد ولّى النهار عليَّ، فصرت أمشي في ذلك الوادي، وألتفت على محلّ أبيت فيه وأنا خائف من تلك الحيّات، ونسيت أكلي وشربي ومعاشي، واشتغلت بنفسي، فلاحَت لي مغارة بالقرب مني، فمشيت فوجدت بابها ضيِّقاً فدخلتها ونظرت إلى حجر كبير عند بابها، فدفعته وسددت به باب تلك المغارة، وأنا داخلها، وقلت في نفسي: قد أمنت لمّا دخلت في هذا المكان، وإن طلع النهار أطلع، وأنظر ما تفعل القدرة. ثم التفتّ في داخل المغارة، فرأيت حيّة عظيمة نائمة في صدر المغارة على بيضها، فاقشعرَّ بدني، وأقمت رأسي وسلمت أمري للقضاء والقدر، وبتّ ساهراً طوال الليل إلى أن طلع الفجر، ولاح، فزحت الحجر الذي سددت به باب المغارة، وخرجت منه وأنا مثل السكران، دائخ من شدّة السهر والجوع والخوف، وتمشَّيت في الوادي. وبينما أنا على هذه الحالة، وإذا بذبيحة قد سقطت من قدّامي، ولم أجد أحداً فتعجَّبت من ذلك أشدّ العجب، وتفكَّرت حكاية أسمعها من قديم الزمان، من بعض التجّار والمسافرين وأهل السياحة، أن في جبال حجر الألماس الأهوال العظيمة، ولا يقدر أحد

أن يسلك إليها، ولكن التجّار الذين يجلبون الألماس يعملون حيلة في الوصول إليه، ويأخذون الشاة من الغنم ويذبحونها ويسلخونها، ويرشون لحمها ويرمونه من أعلى ذلك الجبل إلى أرض الوادي، فتنزل وهي طريّة فيلتصق بها شيء من هذه الحجارة ثم تتركها التجّار إلى نصف النهار، فتنزل الطيور من النسور والرخ إلى ذلك اللحم، وتأخذه في مخالبها، وتصعد إلى أعلى الجبل، فيأتيها التجّار وتصيح عليها، فتصير عند ذلك اللحم، وتخلّص منه الحجارة اللاصقة به، ويتركون اللحم للطيور والوحوش ويحملون الحجارة إلى بلادهم، ولا أحد يقدر أن يتوصَّل إلى مجيء حجر الألماس إلّا بهذه الحيلة.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (532) قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري صار يحكي لأصحابه جميع ما حصل له في جبل الماس، ويخبرهم أن التجّار لا يقدرون على مجيء شيء منه إلّا بحيلة مثل الذي ذكره، ثم قال: فلمّا نظرت إلى تلك الذبيحة تذكَّرت هذه الحكاية فقمت وجئت عند الذبيحة، فنقَّيت من هذه الحجارة شيئاً كثيراً، وأدخلته في جيبي وبين ثيابي، وصرت أنقِّي وأدخل في جيوبي وحزامي وعمامتي وبين حوائجي. فبينما أنا على هذه الحالة، وإذا بذبيحة كبيرة، فربطت نفسي عليها ونمت على ظهري، وجعلتها على صدري وأنا قابض عليها، فصارت عالية على الأرض، وإذا بنسر نزل على تلك الذبيحة وقبض عليها بمخالبه، وأقلع بها إلى الجوّ، وأنا معلَّق بها. ولم يزل طائراً بها إلى أن صعد بها إلى أعلى الجبل، وحطَّها، وأراد أن ينهش منها، وإذا بصيحة عظيمة عالية من خلف ذلك النسر، وشيء يخبط بالخشب على ذلك الجبل، فجفل النسر وطار إلى الجو، ففككت نفسي من الذبيحة وقد تلوَّثت ثيابي من دمها، ووقفت بجانبها، وإذا بذلك التاجر الذي صاح على النسر يتقدَّم إلى الذبيحة، فرآني واقفاً فلم يكلِّمني وقد فزع مني وارتعب، وأتى الذبيحة وقلَّبها، فلم يجد فيها شيئاً، فصاح صيحة عظيمة،

وقال: واخيبتاه! لا حول ولا قوّة إلّا بالله. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهو يتندَّم ويخبط كفّاً على كفّ ويقول: واحسرتاه! أيّ شيء هذا الحال؟، فتقدَّمت إليه، فقال لي: من أنت؟ وما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ فقلت له: لا تخف، ولا تخش فإني إنسيّ من خيار الإنس، وكنت تاجراً، ولي حكاية عظيمة وقصّة غريبة. وسبب وصولي إلى هذا الجبل وهذا الوادي حكاية عجيبة، فلا تخف فلك ما يسرّك مني، وأنا معي شيء كثير من حجر الألماس فأعطيك منه شيئاً يكفيك، وكلّ قطعة معي أحسن من كلّ شيء يأتيك، فلا تجزع ولا تخف. عند ذلك، شكرني الرجل، ودعا لي وتحدَّث معي، وإذا بالتجّار سمعوا كلامي مع رفيقهم، فجاؤوا إليَّ، وكان كلّ تاجر رمى ذبيحته، فلمّا قدموا علينا سلَّموا علينا وهنَّؤوني بالسلامة، وأخذوني معهم، وأعلمتهم بجميع قصَّتي وما قاسيته في سفرتي، وأخبرتهم بسبب وصولي إلى هذا الوادي، ثم إني أعطيت لصاحب الذبيحة التي تعلَّقت فيها شيئاً كثيراً ممّا كان معي ففرح بي ودعالي، وشكرني على ذلك. وقال لي: و،الله، إنه قد كُتِب لك عمر جديد؛ فما أحد وصل إلى هذا المكان قبلك ونجا منه، ولكن الحمد لله على بسلامتك، وباتوا في مكان مليح أمان، وبتّ عندهم وأنا فرحان غاية الفرح بسلامتي ونجاتي من وادي الحيّات، ووصولي إلى بلاد العمار. ولمّا طلع النهار، قمنا وسرنا على ذلك الجبل العظيم، وصرنا ننظر في ذلك الجبل حيّات كثيرة، ولم نزل سائرين إلى أن أتينا بستاناً في جزيرة عظيمة مليحة، وفيها شجر الكافور، وكلّ شجرة منه يستظلّ تحتها إنسان، وإذا أراد أن يأخذ منه أحد يثقب من أعلى الشجرة ثقباً بشيء طويل، ويتلقّى ما ينزل منه فيسيل منه ماء الكافور، ويعقد مثل الشمع وهو عسل ذلك الشجر، وبعدها تيبس الشجرة وتصير حطباً. وفي تلك الجزيرة، صنف من الوحوش يقال له (الكركدن) يرعى فيها رعياً مثل ما يرعى البقر والجاموس في بلادنا، ولكن جسم ذلك الوحش أكبر من جسم الجمل، ويأكل العلق، وهو دابّة عظيمة لها قرن واحد غليظ في وسط رأسها، طوله قدر عشرة أذرع وفيه صورة إنسان، وفي

تلك الجزيرة شيء من صنف البقر. وقد قال لنا البحريّون المسافرون وأهل السياحة في الجبال والأراضي إن هذا الوحش المسمّى بـ(الكركدن) يحمل الفيل الكبير، على قرنه، ويرعى به في الجزيرة والسواحل، ولا يشعر به، ويموت الفيل على قرنه ويسيح دهنه من حرّ الشمس على رأسه، ويدخل في عينيه فيعمى، فيرقد في جانب السواحل، فيجيء له طير الرخّ فيحمله في مخالبه، ويروح به عند أولاده ويزقّهم به، وبما على قرنه. وقد رأيت في تلك الجزيرة شيئاً كثيراً من صنف الجاموس، ليس له عندنا نظير. وفي ذلك الوادي شيء كثير من حجر الألماس الذي حملته معي وخبّأته في جيبي، وقايضوني عليه ببضائع ومتاع من عندهم، وحملوها لي معهم، وأعطوني دراهم ودنانير. ولم أزل سائراً معهم، وأنا أتفرَّج على بلاد الناس، وعلى ما خلق الله، من وادٍ إلى واد ومن مدينة إلى مدينة، ونحن نبيع ونشتري إلى أن وصلنا إلى مدينة البصرة، وأقمنا بها أيّاماً قلائل، ثم جئت إلى مدينة بغداد.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (533)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا رجع من غيبته، ودخل مدينة بغداد، دار السلام، وجاء إلى حارته ودخل داره، ومعه من صنف حجر الألماس شيء كثير، ومعه مال ومتاع وبضائع لها صورة، وقد اجتمع بأهله وأقاربه ثم تصدَّق، ووهب وأعطى وهادى جميع أهله وأصحابه، وصار يأكل طيِّباً، ويشرب طيِّباً، ويلبس ملبساً طيِّباً، ويعاشر ويرافق، ونسي جميع ما قاساه. ولم يزل في عيش هنيّ وصفاء خاطر وانشراح صدر ولعب وطرب، وصار كلّ من سمع بقدومه يجيء إليه ويسأله عن حال السفر وأحوال البلاد، فيخبره ويحكي له ما لقيه وما قاساه، فيتعجَّب من شدَّة ما قاساه، ويهنِّئه بالسلامة. وهذا آخر ما جرى لي وما اتَّفق لي في السفرة الثانية. ثم قال لهم: وفي الغد، إن شاء الله (تعالى)، أحكي لكم حال السفرة الثالثة. فلمّا فرغ السندباد البحري من حكايته

للسـندباد البـرّي تعجَّبـوا مـن ذلـك ونعشـوا عنـده، وأمـر للسـندباد بمئة مثقـال ذهبـاً، فأخذهـا وتوجَّـه إلى حـال سـبيله، وهـو يتعجَّب ممّا قاسـاه السـندباد البحـري، وشـكره، ودعا لـه في بيته. ولمّا أصبـح الصباح وأضاء بنـوره ولاح، قـام السـندباد البـرّي، كـما أمـره، ودخـل إليـه وصبَّـح عليـه، فرحَّـب بـه، وجلـس معـه حتـى أتـاه باقـي أصحابـه وجماعتـه، فأكلـوا وشربـوا وتلـذَّذوا وطربـوا وانشرحـوا، ثـم ابتـدأ السـندباد البحـري بالكلام وقال:

الحكاية الثالثة

(السفرة الثالثة)

اعلموا، يا إخواني، واسمعوا مني حكاية، فإنها أعجب من الحكايات المتقدّمة قبل تاريخه. والله أعلم بغيبة واحكم أني فيما مضى وتقدم لما جئت من السفرة الثانية وأنا في غاية البسط والانشراح، فرحان بالسلامة، وقد كسبت مالاً كثيراً كما حكيت لكم أمس تاريخه، وقد عوَّض الله على جميع ما راح مني. أقمت بمدينة بغداد مدّة من الزمان، وأنا في غاية الحظّ والصفاء والبسط والانشراح، فاشتاقت نفسي إلى السفر والفرجة، وتشوَّقت إلى المتجر والكسب والفوائد، والنفس أمّارة بالسوء فهممت واشتريت شيئاً كثيراً من البضائع المناسبة لسفر البحر، وحزمتها للسفر، وسافرت بها من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، وجئت إلى ساحل البحر فرأيت مركباً عظيماً فيه تجّار وركّاب كثيرة، أهل خير وناس ملاح طيِّبون، أهل دين ومعروف

وصلاح، فنزلت معهم في ذلك المركب، وسافرنا على بركة الله (تعالى)، بعونه وتوفيقه، وقد استبشرنا بالخير والسلامة. ولم نزل سائرين من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة ومن مدينة، إلى مدينة وفي كلّ مكان مررنا عليه نتفرَّج ونبيع ونشتري، ونحن في غاية الفرح والسرور إلى أن كنّا، يوماً من الأيّام، سائرين في وسط البحر العجاج المتلاطم بالأمواج فإذا بالريِّس، وهو جانب المركب، ينظر إلى نواحي البحر، ثم إنه لطم وجهه، وطوى قلوع المركب، ورمى مراسيه، ونتف لحيته ومزَّق ثيابه، وصاح صيحة عظيمة، فقلنا له: يا ريِّس، ما الخبر؟ فقال: اعلموا، يا ركّاب السلامة، أن الريح غلب علينا، وعسف بنا في وسط البحر، ورمتنا المقادير- لسوء بختنا- إلى جبل القرود، وما وصل إلى هذا المكان أحد، وسَلِم منه قطّ، وقد أحسّ قلبي بهلاكنا أجمعين. فما استتمّ قول الريِّس حتى جاءنا القرود، وأحاطوا المركب من كلّ جانب، وهم شيء كثير مثل الجراد المنتشر في المركب وعلى البرّ، فخفنا إن قتلنا منهم أحداً أو طردناه أن يقتلونا؛ لفرط كثرتهم، والكثرة تغلب الشجاعة. وبقينا خائفين منهم أن ينهبوا رزقنا ومتاعنا، وهم أقبح الوحوش، وعليهم شعور مثل لبد الأسود، ورؤيتهم تفزع، ولا يفهَم لهم أحد كلاماً، ولا خبراً، وهم مستوحشون من الناس، صفر العيون وسود الوجوه صغار الخلقة، طول كلّ واحد منهم أربعة أشبار، وقد طلعوا على حبال المرساة وقطَّعوها بأسنانهم، وقطَّعوا جميع حبال المركب من كلّ جانب، فمال المركب من الريح، ورسَت على جبلهم، وصارت المركب في برِّهم، وقبضوا على جميع التجّار والركّاب، وطلعوا إلى الجزيرة، وأخذوا المركب بجميع ما كان فيها وراحوا بها. فبينما نحن في تلك الجزيرة، نأكل من أثمارها وبقولها وفواكهها ونشرب من الأنهار التي فيها، إذ لاح لنا بيت عامر في وسط تلك الجزيرة فقصدناه، ومشينا إليه فإذا هو قصر مشيَّد الأركان عالي الأسوار، له باب بدرفتين، مفتوح، وهو من خشب الأبانوس، فدخلنا باب ذلك القصر، فوجدنا له حظيراً واسعاً مثل الحوش الواسع الكبير، وفي دائره أبواب كثيرة، وفي صدره مصطبة عالية كبيرة، وفيها

أواني طبيخ معلَّقة على الكوانين، وحواليها عظام كثيرة، ولم نرَ فيها أحد، فتعجَّبنا من ذلك غاية العجب، وجلسنا في حضير ذلك القصر قليلاً، ثم بعد ذلك نمنا، ولم نزل نائمين من ضحوة النهار إلى غروب الشمس، وإذ بالأرض قد ارتجَّت من تحتنا وسمعنا دوياً من الجوّ، وقد نزل علينا من أعلى القصر شخص عظيم الخلقة في صفة إنسان، وهو أسود اللون طويل القامة كأنه نخلة عظيمة، وله عينان كأنهما شعلتان من نار، وله أنياب مثل أنياب الخنازير، وله فم عظيم الخلقة مثل البئر، وله مشافر مثل مشافر الجمل مرخيّة على صدره، وله أذنان مثل الحرامين مرخيَّتان على أكتافه، وأظافر يديه مثل مخالب السبع، فلمّا نظرناه على هذه الحالة غبنا عن وجودنا، وقَوِيَ خوفنا، واشتدَّ فزعنا، وصرنا مثل الموتى من شدّة الخوف والجزع والفزع.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (534)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري ورفقته لمّا رأوا هذا الشخص الهائل الصورة، حصل لهم غاية الخوف والفزع، فلمّا نزل على الأرض جلس قليلاً على المصطبة، ثم إنه قام وجاء عندنا، ثم قبض على يدي من بين أصحابي التجّار، ورفعني بيده عن الأرض، وحبسني وقلَّبني فصرت في يده مثل اللقمة الصغيرة، وصار يحبسني مثل ما يحبس الجزّار ذبيحة الغنم، فوجدني ضعيفاً من كثرة القهر هزيلاً من كثرة التعب والسفر، وليس فيَّ شيء من اللحم فأطلقني من يده، وأخذ واحداً غيري من رفاقي وقلَّبه كما قلَّبني، وحبسه كما حبسني، ثم أطلقه. ولم يزل يحبسنا ويقلبِّنا، واحداً بعد واحد، إلى أن وصل إلى ريِّس المركب الذي كنّا فيه، وكان رجلاً سميناً غليظاً عريض الأكتاف صاحب قوّة وشدّة، فأعجبه وقبض عليه مثل ما يقبض الجزّار على ذبيحته، ورماه على الأرض، ووضع رجله على رقبته وجاء بسيخ طويل، فأدخله في حلقه حتى أخرجه من دبره، وأوقد ناراً شديدة وركَّب عليها ذلك السيخ المشكوك فيه الريِّس، ولم يزل يقلبه على الجمر حتى استوى لحمه،

وأطلعه من النار وحطّه قدّامه، وفسخه كما يفسخ الرجل الفرخة. وصار يقطِّع لحمه بأظافره، ويأكل منه. ولم يزل على هذه الحالة حتى أكل لحمه، ونهش عظمه، فلم يبقِ منه شيئاً، ورمى باقي العظام في جنب القصر. ثم إنه جلس قليلاً، وانطرح ونام على تلك المصطبة وصار يشخر مثل شخير الخروف أو البهيمة المذبوحة، ولم يزل نائماً إلى الصباح، ثم قام وخرج إلى حال سبيله. فلمّا تحقَّقنا بعده تحدَّثنا معاً، وبكينا على أرواحنا وقلنا: ليتنا غرقنا في البحر، وأكلتنا القرود خير من شوي الإنسان على الجمر. والله، إن هذا الموت رديء، ولكن ما شاء الله كان، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. لقد كدنا نموت كمداً، ولم يدرِ بنا أحد، وما بقي لنا نجاة من هذا المكان. ثم إننا قمنا وخرجنا إلى الجزيرة لننظر لنا مكاناً نختفي فيه أو نهرب، وقد هان علينا أن نموت ولا يُشوى لحمنا بالنار، فلم نجد مكاناً نختفي فيه، وقد أدركنا المساء فعدنا إلى القصر من شدّة خوفنا. جلسنا قليلاً، وإذا بالأرض قد ارتجفت من تحتنا، وأقبل ذلك الشخص الأسوَد، وجاء عندنا، وصار يقلِّبنا واحداً بعد الآخر مثل المرّة الأولى، ويحبسنا حتى أعجبه واحد، فقبض عليه وفعل به مثل ما فعل بالريِّس في أوَّل يوم، فشواه وأكله على تلك المصطبة، ولم يزل نائماً في تلك الليلة وهو يشخر مثل الذبيحة، فلمّا طلع النهار قام وراح إلى حال سبيله، وتركنا على جري عادته، فاجتمعنا، وتحدَّثنا وقلنا: والله، لأن نلقي أنفسنا في البحر ونموت غرقاً خير من أن نموت حرقاً؛ لأن هذه قتلة شنيعة. فقال واحد منّا: اسمعوا كلامي، علينا أن نحتال عليه ونقتله، فنرتاح من همّه، ونريح المسلمين من عدوانه وظلمه. فقلت لهم: اسمعوا، يا إخواني: إن كان لابدّ من قتله فإننا نحوِّل هذا الخشب، وننقل شيئاً من هذا الحطب، ونعمل لنا فلكاً مثل المركب وبعد ذلك، نحتال في قتله، وننزل في الفلك، ونروح في البحر إلى أيّ محلّ يريده الله. وإننا نقعد في هذا المكان حتى يمرّ علينا مركب، فننزل فيه، وإن لم نقدر على قتله ننزل ونروح في البحر ولو كنّا نغرق نرتاح من شيِّنا على النار، ومن الذبح، فإن سلمنا سلمنا، وإن غرقنا

متنا شهداء. فقالوا جميعاً: والله، هذا رأي سديد وفعل رشيد. واتَّفقنا على هذا الأمر، وشرعنا في فعله، فنقلنا الأخشاب إلى خارج القصر، وصنعنا فلكاً وربطناه على جانب البحر، ونزَّلنا فيه شيئاً من الزاد، ثم عدنا إلى القصر. فلمّا كان وقت المساء، إذا بالأرض قد ارتجفت بنا ودخل علينا الأسوَد، وكأنه الكلب العقور، ثم قلَّبنا وحبسنا واحداً بعد واحد، ثم أخذ واحداً وفعل به مثل ما فعل بسابقَيْه.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (535)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري قال إن الأسود أخذ واحداً منّا، وفعل به مثل ما فعل بسابقَيْه، وأكله ثم نام على المصطبة، وصار شخيره مثل الرعد، فنهضنا وقمنا وأخذنا سيخين من حديد من الأسياخ المنصوبة، ووضعناهما في النار القويّة حتى احمرّا وصارا مثل الجمر، وقبضنا عليهما قبضاً شديداً وجئنا بهما إلى ذلك الأسود وهو نائم يشخر، ووضعناهما في عينيه واتكأنا عليهما جميعاً بقوَّتنا، وعزمنا فأدخلناهما في عينيه وهو نائم، فانطمستا وصاح صيحة عظيمة، فارتعبت قلوبنا منه، ثم قام من فوق تلك المصطبة بعزمه، وصار يفتِّش علينا، ونحن نهرب منه يميناً وشمالاً، فلم ينظرنا وقد عَمِي بصره، فخفنا منه مخافة شديدة، وأيقنّا في تلك الساعة بالهلاك، ويئسنا من النجاة. فعند ذلك، قصد الباب وهو يحسِّس، وخرج منه وهو يصيح، ونحن في غاية الرعب منه، وإذا بالأرض ترتجّ من تحتنا من شدّة صوته، فلمّا خرج من القصر راح إلى حال سبيله، وهو يدور علينا، ثم إنه رجع ومعه أنثى أكبر منه، وأوحش منه خلقةً، فلمّا رأيناه والذي معه أفظع حالة منه خفنا غاية الخوف، فلمّا رأونا أسرعنا ونهضنا ففككنا الفلك الذي صنعناه، ونزلنا فيه ودفعناه في البحر، وكان مع كلّ واحد منهم صخرة عظيمة، وصارا يرجماننا بها إلى أن مات أكثرنا من الرجم، وبقي منّا ثلاثة أشخاص: أنا واثنان.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (536)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا نزل في الفلك هو وأصحابه، صار يرجمانهم، الأسود ورفيقته، فماتَ أكثرهم، ولم يبق منهم إلّا ثلاثة أشخاص، فطلع بهم الفلك إلى جزيرة. قال: فمشينا إلى آخر النهار، فدخل علينا الليل ونحن على هذه الحالة فنمنا قليلاً، واستيقظنا من نومنا وإذا بثعبان عظيم الخلقة كبير الجثّة واسع الجوف قد أحاط بنا، وقصد واحداً فبلعه إلى أكتافه، ثم بلع باقيه، فسمعنا أضلاعه تتكسَّر في بطنه، وراح في حال سبيله، فتعجَّبنا من ذلك غاية العجب، وحزنّا على رفيقنا، وصرنا في غاية الخوف على أنفسنا، وقلنا: والله، هذا أمر عجيب! كلّ موتة أشنع من السابقة. وكنّا فرحنا بسلامتنا من الأسود، فما تمَّت الفرحة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله. والله، قد نجونا من الأسوَد ومن الغرق، فكيف تكون نجاتنا من هذه الآفة المشؤومة؟ ثم إننا قمنا فمشينا في الجزيرة، وأكلنا من ثمرها وشربنا من أنهارها، ولم نزل فيها إلى وقت المساء، فوجدنا صخرة عظيمة عالية، فطلعناها ونمنا فوقها، وقد طلعت أنا على فروعها. فلمّا دخل الليل، وأظلم الوقت، جاء الثعبان وتلفَّت يميناً وشمالاً، ثم إنه قصد تلك الشجرة التي نحن عليها ومشى حتى وصل إلى رفيقي وبلعه حتى أكتافه، والتفت به على الشجرة، فسمعت عظمه يتكسَّر في بطنه، ثم بلعه بتمامه، وأنا أنظر بعينيَّ، ثم إن الثعبان نزل من فوق تلك الشجرة وراح إلى حال سبيله. ولم أزل على تلك الشجرة في تلك الليلة، فلمّا طلع النهار وبان النور ونزلت من فوق الشجرة وأنا مثل الميِّت من كثرة الخوف والفزع، أردت أن ألقي بنفسي في البحر وأستريح من الدنيا، فلم تهن عليَّ روحي لأن الروح عزيزة، فربطت خشبة عريضة على أقدامي بالعرض، وربطت واحدة مثلها على جنبي الشمال، ومثلها على جنبي اليمين، ومثلها على بطني، وربطت واحدة طويلة عريضة من فوق رأسي بالعرض مثل التي تحت أقدامي، وصرت أنا في وسط هذا الخشب، وهو محتاط بي من كلّ جانب وقد شددت ذلك شدّاً وثيقاً، وألقيت نفسي بالجميع على الأرض، فصرت نائماً بين تلك

الأخشاب وهي محيطة بي كالمقصورة. فلمّا أمسى الليل أقبل ذلك الثعبان، على جري عادته، ونظر إليَّ وقصدني فلم يقدر أن يبلغني، وأنا على تلك الحالة والأخشاب حولي من كلّ جانب، فدار الثعبان حولي فلم يستطع الوصول إليَّ، وأنا أنظر بعينيَّ وقد صرت كالميِّت من شدّة الخوف والفزع، وصار الثعبان يبعد عني ويعود إليَّ، ولم يزل على هذه الحالة، وكلَّما أراد الوصول إليَّ ليبتلعني تمنعه تلك الأخشاب المشدودة عليّ من كلّ جانب. ولم يزل كذلك من غروب الشمس إلى أن طلع الفجر، وبان النور وأشرقت الشمس، فمضى الثعبان إلى حال سبيله، وهو في غاية من القهر والغيظ. عند ذلك، مددت يدي، وفككت نفسي من تلك الأخشاب وأنا في حكم الأموات من شدّة ماقاسيت من ذلك الثعبان، ثم إني قمت ومشيت في الجزيرة حتى انتهيت إلى آخرها، فلاحت لي مني التفاتة إلى ناحية البحر، فرأيت مركباً على بعد في وسط اللجّة، فأخذت فرعاً كبيراً من شجرة ولوَّحت به إلى ناحيتهم، وأنا أصيح عليهم. فلمّا رأوني قالوا: لابدَّ أننا ننظر ما يكون هذا، لعلّه إنسان! ثم إنهم قربوا مني وسمعوا صياحي، عليهم فجاؤوا إليَّ وأخذوني معهم في المركب، وسألوني عن حالي فأخبرتهم بجميع ما جرى لي، من أوَّله إلى آخره، وماقاسيته من الشدائد، فتعجَّبوا من ذلك غاية العجب، ثم إنهم ألبسوني من عندهم ثياباً، وستروا عورتي. وبعد ذلك، قدَّموا لي شيئاً من الزاد حتى اكتفيت، وسقوني ماء بارداً عذباً فانتعش قلبي، وارتاحت نفسي وحصل لي راحة عظيمة، وأحياني الله (تعالى) بعد موتي، فحمدته على نعمه الوافرة، وشكرته، وقوّيت همَّتي بعدما كنت أيقنت بالهلاك حتى تخيَّل لي أن جميع ما أنا فيه منام. ولم نزل سائرين، وقد طاب لنا الريح بإذن الله (تعالى) إلى أن أشرفنا على جزيرة يقال لها جزيرة (السلاهطة) فأوقف الريِّس المركب عليها.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (537)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن المركب

الذي نزل فيه السندباد البحري رست على جزيرة، فنزل منه جميع التجّار، فالتفت إليَّ صاحب المركب وقال لي: اسمع كلامي. أنت رجل غريب فقير، وقد أخبرتنا أنك قاسيت أهوالاً كثيرة، ومرادي أن أنفعك بشيء يعينك على الوصول إلى بلادك وتبقى تدعو لي، فقلت له: نعم، ولك مني الدعاء. فقال: اعلم أنه كان معنا رجل مسافر ففقدناه، ولم نعلم هل هو حيّ أم مات، ولم نسمع عنه خبراً، ومرادي أن أدفع لك حمولة لتبيعها في هذه الجزيرة وتحفظها، وأعطيك شيئاً في نظير تعبك وخدمتك وما بقي منها نأخذه إلى أن تعود إلى مدينة بغداد، فنسأل عن أهله وندفع إليهم بقيَّتها وثمن ما بيع منها، فهل لك أن تتسلَّمها وتنزل بها هذه الجزيرة، فتبيعها مثل التجّار؟ فقلت: سمعاً وطاعة لك، يا سيِّدي، ولك الفضل والجميل. دعوت له وشكرته على ذلك، ثم أمر الحمّالين والبحرية بإخراج تلك البضائع إلى الجزيرة، وأن يسلموها إليَّ، فقال كاتب المركب: يا ريِّس، ما هذه الحمول التي أخرجها البحرية والحمّالون؟ باسْمِ مَنْ من التجّار أكتبها؟ فقال: اكتب عليها اسم السندباد البحري الذي كان معنَا، وغرق في الجزيرة، ولم يأتنا عنه خبر، فنريد أن يبيعها هذا الغريب ونحمل ثمنها ونعطيه شيئاً منه نظير تعبه وبيعه، والباقي نحمله معنا حتى نرجع إلى مدينة بغداد، فإن وجدناه أعطيناه إيّاه، وإن لم نجده ندفعه إلى أهله في مدينة بغداد، فقال الكاتب: كلامك مليح، ورأيك رجيح. فلمّا سمعت كلام الريِّس، وهو يذكر أن الحمول باسمي، قلت في نفسي: والله، أنا السندباد البحري، وأنا غرقت في الجزيرة مع جملة من غرق، ثم إني تجلَّدت وصبرت إلى أن طلع التجّار من المركب، واجتمعوا يتحدَّثون ويتذاكرون في أمور البيع والشراء. فتقدَّمت إلى صاحب المركب، وقلت له: يا سيِّدي، هل تعرف كيف كان صاحب الحمول التي سلَّمتها إليَّ لأبيعها؟ فقال لي: لا أعلم له حالاً، ولكنه كان رجلاً من مدينة بغداد، يقال له السندباد البحري، وقد أرسينا على جزيرة من الجزائر فغرق منّا فيها خلق كثير، وفُقِد هو من جملتهم، ولم نعلم له خبراً إلى هذا الوقت. عند ذلك، صرخت صرخة عظيمة، وقلت له:

يا ريِّس السلامة، اعلم أني أنا السندباد البحري. أنا لم أغرق، ولكن لمّا أرسيت على الجزيرة وطلع التجّار والركّاب طلعت أنا مع جملة الناس، ومعي شيء آكله بجانب الجزيرة، ثم إني تلذَّذت بالجلوس في ذلك المكان، فأخذتني سِنَة من النوم، فنمت وغرقت في النوم، ثم إني قمت فلم أجد المركب، ولم أجد أحداً عندي. وهذا المال مالي، وهذه البضائع بضائعي، وجميع التجّار الذين يجلبون حجر الألماس رأوني وأنا في جبل الألماس، ويشهدون لي بأني أنا السندباد البحري، كما أني أخبرتهم بقصَّتي وما جرى لي معكم في المركب، وأخبرتهم بأنكم نسيتموني في الجزيرة نائماً، وقمت فلم أجد أحداً، وجرى لي ما جرى. فلمّا سمع التجّار والركّاب كلامي، اجتمعوا عليَّ، فمنهم من صدَّقني، ومنهم من كذَّبني. فبينما نحن كذلك، وإذا بتاجر من التجّار حين سمعني أذكر وادي الألماس نهض وتقدَّم عندي، وقال لهم: اسمعوا، يا جماعة، كلامي: إني لمّا كنت ذكرت لكم أعجب ما رأيت في أسفاري لمّا ألقينا الذبائح في وادي الألماس، وألقيت ذبيحتي معهم، على جري عادتي، طلع على ذبيحتي رجل متعلِّق بها، ولم تصدِّقوني بل كذَّبتموني. فقالوا له: نعم، حكيت لنا هذا الأمر، ولم نصدِّقك. فقال لهم: هذا هو التاجر الذي تعلَّق بذبيحتي، وقد أعطاني شيئاً من حجر الألماس الغالي الثمن الذي لا يوجد نظيره، وعوَّضني أكثر ما كان يطلع لي في ذبيحتي، وقد استصحبته معي إلى أن وصلنا إلى مدينة البصرة، وبعد ذلك توجَّه إلى بلاده وودَّعنا، ورجعنا إلى بلادنا، وهو هذا، وقد أعلمنا أن اسمه السندباد البحري، وأخبرنا بذهاب المركب وجلوسه في هذه الجزيرة. واعلموا أن هذا الرجل ما جاءنا هنا إلّا لتصدِّقوا كلامي ممّا قلته لكم، وهذه البضائع كلّها رزقه فإنه أخبر بها في وقت اجتماعه علينا، وقد ظهر صدقه في قوله. فلمّا سمع الريِّس كلام ذلك التاجر، قام على حيله، وجاء عندي وحقَّق فيَّ النظر ساعةً، وقال: ما علامة بضائعك؟ فقلت له: اعلم أن علامة بضائعي ما هو كذا وكذا، وقد أخبرته بأمر كان بيني وبينه، ولمّا نزلت معه المركب من البصرة، فتحقَّق أني أنا السندباد البحري، فعانقني

وسَلَّم عليَّ، وهنأني بالسلامة، وقال لي: ياسيِّدي، إن قصَّتك عجيبة، وأمرك غريب، ولكن الحمد لله الذي جمع بيننا وبينك، وردَّ بضائعك ومالك عليك.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (538)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لما تبيَّن للريِّس والتجّار أنه هو عينه، وقال له الريِّس: «الحمد لله الذي ردَّ بضائعك ومالك عليك»، قال: فعند ذلك تصرَّفت في بضائعي بمعرفتي، وربحت بضائعي في تلك السفرة شيئاً كثيراً، وفرحت بذلك فرحاً عظيماً، هَنِئت بالسلامة، وعاد مالي إليّ. ولم نزل نبيع ونشتري في الجزائر إلى أن وصلنا إلى بلاد السندباد، وبعنا فيها واشترينا، ورأيت في ذلك البحر شيئاً كثيراً من العجائب والغرائب لا تُعَدّ ولا تُحصى، ومن جملة ما رأيت، في ذلك البحر، سمكة على صفة البقرة، وشيئاً على صفة الحمير، ورأيت طيراً يخرج من صدف البحر ويبيض ويفرِّخ على وجه الماء ولا يطلع من البحر على وجه الأرض، أبداً. وبعد ذلك، لم نزل مسافرين، بإذن الله (تعالى)، وقد طاب لنا الريح والسفر إلى أن وصلنا إلى البصرة، وقد أقمت فيها أيّاماً قلائل، وبعد ذلك جئت إلى مدينة بغداد، فتوجَّهت إلى حارتي ودخلت بيتي، وسلَّمت على أهلي وأصحابي وأصدقائي، وقد فرحت بسلامتي وعودتي إلى بلادي وأهلي ومدينتي وديياري، وتصدَّقت ووهبت، وكَسَوْت الأرامل والأيتام. وجمعت أصحابي وأحبابي، ولم أزل على هذه الحالة في أكل وشرب ولهو وطرب، وأنا آكل وأشرب طيِّباً، وأعاشر وأخالط، وقد نسيت جميع ما جرى لي، وما قاسيت من الشدائد والأهوال، وكسبت شيئاً في هذه السفرة لا يُعَدّ ولا يُحصى، وهذا أعجب ما رأيته في هذه السفرة. وفي غد، إن شاء الله (تعالى)، تجيء إليّ، فأحكي لك حكاية السفرة الرابعة، فإنها أعجب من هذه السفرات. ثم إن السندباد البحري أمر بأن يدفعوا إليه مئة مثقال من الذهب، على جري عادته، وأمر بمدّ السماط، فمدّوه وتعشّى الجماعة، وهم يتعجّبون من تلك

الحكايـة، ومـا جـرى فيهـا. ثـم إنهـم، بعـد العشـاء، انصرفـوا إلى حـال سـبيلهم، وقـد أخـذ السـندباد الحـمّال مـا أُمـر لـه بـه، مـن الذهـب، وانـصرف إلى حـال سـبيله، وهـو متعجِّـب ممّـا سـمعه مـن السـندباد البحـري، وبـات في بيتـه. ولمّـا أصبـح الصبـاح، وأضـاء بنـوره ولاح، قـام السـندباد الحـمّال وصـلَّى الصبـح وتمـشَّى إلى السـندباد البحـري، وقـد دخـل عليـه وتلقَّـاه بالفـرح والانشراح، وأجلسـه عنـده إلى أن حضر بقيّة أصحابـه، وقدَّمـوا الطعـام، فأكلـوا وشربوا وانبسـطوا، فبدأهـم بالكلام، وحـكى لهـم الحكايـة الرابعة.



الحكاية الرابعة

(السفرة الرابعة)

(قال) السندباد البحري: اعلموا، يا أخواني، أني لمّا عدت إلى مدينة بغداد واجتمعت على أصحابي وأحبابي، وصرت في أعظم ما يكون من الهناء والسرور والراحة، وقد نسيت ما كنت فيه لكثرة الفوائد، وغرقت في اللهو والطرب ومجالسة الأحباب والأصحاب، وأنا في ألذّ ما يكون من العيش، حدَّثتني نفسي الخبيثة بالسفر إلى بلاد الناس، وقد اشتقت إلى مصاحبة الأجناس والبيع والمكاسب، فهممت في ذلك الأمر، واشتريت بضاعة نفيسة تناسب البحر، وحزمت حمولاً كثيرة زيادة عن العادة، ثم سافرت من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، ونزَّلت حمولتي في المركب واصطحبت بجماعة من أكابر البصرة، وقد توجَّهنا إلى السفر، فسافر بنا المركب، على بركة الله (تعالى)، في البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، وطاب لنا السفر. ولم نزل على هذه الحالة مدّة ليالٍ وأيّام، من جزيرة

إلى جزيرة ومن بحر إلى بحر، إلى أن خرجت علينا ريح مختلفة، يوماً من الأيّام، فرمى الريِّس مراسي المركب، وأوقفها في وسط البحر؛ خوفاً عليها من الغرق في وسط البحر. فبينما نحن على هذه الحالة ندعو ونتضرَّع إلى الله (تعالى)، إذ خرج علينا عاصف ريح شديد مزَّق القلع وقطَّعه قطعاً، وغرق الناس وجميع حمولهم وما معهم من المتاع والأموال، وغرقت أنا بجملة مَنْ غرق، وعمْتُ في البحر نصف نهار، وقد تخلَّيت عن نفسي فيسَّر الله (تعالى) لي قطعة لوح خشب من ألواح المركب، فركبتها أنا وجماعة من التجّار.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (539)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري، بعد أن غرقت المركب، وطلع على لوح خشب هو وجماعة من التجّار، قال: اجتمعنا معاً، ولم نزل راكبين على ذلك اللوح، نرفس بأرجلنا في البحر والأمواج والريح تساعدنا، وقد مكثنا على هذه الحالة يوماً وليلة. فلمّا كان ثاني يوم ضحوة نهار، ثار علينا ريح، وهاج البحر وقوي الموج والريح، فرمانا الماء على جزيرة ونحن مثل الموتى من شدّة السهر والتعب والبرد والجوع والخوف والعطش، وقد مشينا في جوانب تلك الجزيرة فوجدنا فيها نباتاً كثيراً، فأكلنا منه شيئاً يسدّ رمقنا ويقيتنا. وبتنا تلك الليلة على جانب الجزيرة، فلمّا أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، قمنا ومشينا في الجزيرة يميناً وشمالاً، فلاحَ لنا عمارة على بعد، فسرنا في تلك الجزيرة قاصدين تلك العمارة التي رأيناها من بُعد، ولم نزل سائرين إلى أن وقفنا على بابها. فبينما نحن واقفون هناك، خرج علينا، من ذلك الباب، جماعة عراة ولم يكلِّمونا، وقد قبضوا علينا وأخذونا عند ملكهم، فأمرنا بالجلوس فجلسنا، وقد أحضروا لنا طعاماً لم نعرفه، ولم نرَ مثله في حياتنا، فلم تقبله نفسي، ولم آكل منه شيئاً دون رفقتي، وكانت قلّة أكلي منه لطفاً من الله (تعالى)، حتى عشت إلى الآن. فلما أكل أصحابي من ذلك الطعام ذُهلت عقولهم، وصاروا يأكلون مثل المجانين وتغيَّرت أحوالهم، وبعد ذلك أحضروا لهم دهن النارجيل

فسقوهم منه ودهنوهم منه، فلمّا شرب أصحابي من ذلك الدهن زاغت أعينهم من وجوههم، وصاروا يأكلون من ذلك الطعام بخلاف أكلهم المعتاد، وعند ذلك احترت في أمرهم، وصرت أتأسَّف عليهم، وقد صار عندي هَمّ عظيم من شدّة الخوف على نفسي من هؤلاء العرايا، وقد تأمَّلتهم فإذا هم قوم مجوس، وملك مدينتهم غول، وكلّ مَنْ وصل إلى بلادهم أو رأوه في الوادي أو الطرقات يجيئون به إلى ملكهم، ويطعمونه من ذلك الطعام، ويدهنونه بذلك الدهن فيتَّسع جوفه لأجل أن يأكل كثيراً ويذهل عقله وتنطمس فكرته ويصير مثل الإبل، فيزيدون له الأكل والشرب من ذلك الطعام والدهن حتى يسمن ويغلظ، فيذبحونه ويشوونه ويطعمونه لملكهم. وأمّا أصحاب الملك فيأكلون من لحم الإنسان بلا شوي ولا طبخ. فلما نظرت منهم ذلك الأمر صرت في غاية الكرب على نفسي وعلى أصحابي، وقد صار أصحابي من فرط ما دهشت عقولهم لا يعلمون ما يفعل بهم وقد سلَّموهم إلى شخص، فصار يأخذهم كلّ يوم ويخرج يرعاهم في تلك الجزيرة مثل البهائم، وأما أنا فقد صرت، من شدّة الخوف والجوع، ضعيفاً سقيم الجسم، وصار لحمي يابساً على عظمي. فلمّا رأوني على هذه الحالة تركوني، ونسوني، ولم يتذكَّرني منهم أحد، ولا خطرت لهم في بال، إلى أن تحيَّلت يوماً من الأيَّام وخرجت من ذلك المكان، فمشيت في تلك الجزيرة، ولم أزل سائراً حتى طلع النهار وأصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، وطلعت الشمس على رؤوس الروابي والبطاح، وقد تعبت وجعت وعطشت فصرت آكل من الحشيش والنبات الذي في الجزيرة، ولم أزل آكل من ذلك النبات حتى شبعت، وانسدَّ رمقي. بعد ذلك، قمت ومشيت في الجزيرة، ولم أزل على هذه الحالة طول النهار والليل، وكلَّما أجوع آكل من النبات، ولم أزل على هذه الحالة مدّة سبعة أيّام بلياليها. فلمّا كانت صبيحة اليوم الثامن، لاحت مني نظرة فرأيت شبحاً من بعيد، فسرت إليه، ولم أزل سائراً إلى أن حصَّلته بعد غروب الشمس فحقَّقت النظر فيه وأنا بعيد عنه، وقلبي خائف من الذي قاسيته أوَّلاً وثانياً، فإذا هم جماعة يجمعون حَبّ الفلفل، فلمّا قربت منهم ونظروني تسارعوا إليَّ

وجاؤوا عندي، وقد أحاطوا بي من كلّ جانب وقالوا لي: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ فقلت لهم: اعلموا- يا جماعة- أني رجل غريب مسكين، ثم أخبرتهم بجميع ما كان من أمري، وما جرى لي من الأهوال والشدائد وما قاسيته.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (540)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لما رأى الجماعة الذين يجمعون حَبّ الفلفل في الجزيرة، وسألوه عن حاله، حكى لهم جميع ما جرى له، وما قاساه من الشدائد، فقالوا: والله، هذا أمر عجيب! ولكن، كيف خلاصك من السودان؟ وكيف مرورك عليهم في هذه الجزيرة وهم خلق كثيرون ويأكلون الناس، ولا يسلم منهم أحد، ولا يقدر أن يجوز عليهم أحد؟ فأخبرتهم بما جرى لي معهم، وكيف أخذوا أصحابي وأطعموهم الطعام، ولم آكل منه فهنَّأوني بالسلامة، وصاروا يتعجَّبون ممّا جرى لي، ثم أجلسوني عندهم حتى فرغوا من شغلهم وأتوني بشيء من الطعام، فأكلت منه، وكنت جائعاً، وارتحت عندهم ساعة من الزمان. وبعد ذلك، أخذوني ونزلوا بي في مركب، وجاؤوا إلى جزيرتهم ومساكنهم وقد عرضوني على ملكهم، فسلَّمت عليه ورحَّب بي وأكرمني وسألني عن حالي، فأخبرته بما كان من أمري، وما جرى لي وما اتَّفق لي من يوم خروجي من مدينة بغداد إلى حين وصلت إليه، فتعجَّب ملكهم من قصَّتي غاية العجب، هو ومن كان حاضراً في مجلسه، ثم إنه أمرني بالجلوس عنده فجلست، وأمر بإحضار الطعام فأحضروه فأكلت منه على قدر كفايتي، وغسلت يدي، وشكرت فضل الله (تعالى) وحمدته وأثنيت عليه. ثم إني قمت من عند ملكهم، وتفرَّجت في مدينته، فإذا هي مدينة عامرة كثيرة الأهل والمال، كثيرة الطعام والأسواق والبضائع والبائعين والمشترين، ففرحت بوصولي إلى تلك المدينة، وارتاح خاطري، واستأنست بأهلها، وصرت عندهم وعند ملكهم معزَّزاً مكرَّماً زيادة عن أهل مملكته من عظماء مدينته، ورأيت جميع أكابرها وأصاغرها يركبون الخيل الجياد الملاح

من غير سروج، فتعجَّبت من ذلك، ثم إني قلت للملك: لأيّ شيء- يا مولاي- لم تركب على سرج؟؛ إن فيه راحة للراكب وزيادة قوّة، فقال لي: كيف يكون السرج؟ هذا شيء عمرنا ما رأيناه، ولا ركبنا عليها، فقلت له: هل لك أن تأذن لي أن أصنع لك سرجاً تركب عليه وتنظر حظّه؟ فقال لي: افعل. فقلت له: أحضر لي شيئاً من الخشب، فأمر لي بإحضار جميع ما طلبته. عند ذلك، طلبت نجّاراً شاطراً، وجلست عنده وعلَّمته صنعة السرج، وكيف يعمله، ثم إني أخذت صوفاً ونقشته وصنعت منه لبداً، وأحضرت جلداً وألبسته السرج وصقلته ثم ركَّبت سيوره وشددت شريحته، وبعد ذلك أحضرت الحدّاد ووصفت له كيفية الركاب، فدقَّ ركاباً عظيماً وبرَدْتُه وبيَّضته بالقصدير، ثم إني شددت له أهداباً من الحرير، وبعد ذلك قمت وجئت بحصان من خيار خيول الملك وشددت عليه السرج، وعلَّقت فيه الركاب، وألجمته بلجام، ثم قدّمته إلى الملك فأعجبه ولاق بخاطره، وشكرني، ثم ركب عليه، قد حصل له فرح شديد بذلك السرج، وأعطاني شيئاً كثيراً في نظير عملي له. فلمّا نظرني وزيره، وقد عملت ذلك السرج، طلب مني واحداً مثله فعملت له سرجاً مثله، وقد صار أكابر الدولة وأصحاب المناصب يطلبون مني السروج فأفعل لهم، وعلَّمت النجّار صنعة السرج، والحدَّاد صنعة الركاب، وصرنا نعمل السروج والركابات ونبيعها للأكابر والمخاديم، وقد جمعت من ذلك مالاً كثيراً، وصار لي عندهم مقام كبير وأحبّوني محبّة زائدة، وبقيت صاحب منزلة عالية عند الملك وجماعته وعند أكابر البلد وأرباب الدولة، إلى أن جلست يوماً من الأيَّام عند الملك، وأنا في غاية السرور والعزّ. فبينما أنا جالس قال لي الملك: اعلم- يا هذا- أنك صرت معزوزاً مكرَّماً عندنا، وواحداً منّا، ولا نقدر على مفارقتك، ولا نستطيع خروجك من مدينتنا. ومقصودي منك شيء تطيعني فيه، ولا تردّ قولي، فقلت له وما الذي تريد مني، أيُّها الملك؛ فإني لا أردّ قولك، لأنه صار لك فضل وجميل وإحسان عليَّ، والحمد لله أنا صرت من بعض خدامك؟ فقال: أريد أن أزوِّجك عندنا بزوجة حسنة مليحة ظريفة صاحبة مال وجمال، وتصير مستوطناً عندنا، وأُسكنك عندي في قصري، فلا تخالفني ولا تردّ

كلامي. فلمّا سمعت كلام الملك استحييت منه، وسكتّ، ولم أردّ عليه جواباً من كثرة الحياء، فقال لي: لِمَ لا تردّ عليَّ، يا ولدي! فقلت: يا سيِّدي، الأمر أمرك يا ملك الزمان. فأرسل من وقته وساعته فأحضر القاضي والشهود وزوَّجني، في ذلك الوقت، بامرأة شريفة القدر عالية النسب كثيرة المال والنوال عظيمة الأصل بديعة الجمال والحسن صاحبة أماكن وأملاك وعقارات.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (541)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري بعد أن زوَّجه الملك، وعقد له على امرأة عظيمة، قال: ثم إنه أعطاني بيتاً عظيماً مليحاً بمفرده، وأعطاني خُدّاماً وحشماً، ورتَّب له جرايات وجوامك، وصرت في غاية الراحة والبسط والانشراح، ونسيت جميع ما حصل لي من التعب والمشقّة والشدّة، وقلت في نفسي: إذا سافرت إلى بلادي آخذها معي، وكلّ شيء مقدَّر على الإنسان لابدَّ منه، ولم يعلم بما يجري له، وقد أحببتها وأحبَّتني محبّة عظيمة، ووقع الوفاق بيني وبينها، وقد أقمنا في ألذّ عيش، وأرغد مورد، ولم نزل على هذه الحالة مدّة من الزمن إلى أفقد الله (تعالى) زوجة جاري، وكان صاحباً لي، فدخلت إليه لأعزّيه في زوجته، فرأيته في أسوأ حال وهو مهموم تعبان السرّ والخاطر، فعند ذلك عزَّيته وسلّيته، وقلت له: لا تحزن على زوجتك. الله يعوضك خيراً منها، ويكون عمرك طويلاً، إن شاء الله (تعالى)، فبكى بكاءً شديداً وقال: يا صاحبي، كيف أتزوَّج بغيرها، أو كيف يعوِّضني الله خيراً منها، وأنا بقي من عمري يوم واحد؟ فقلت له: يا أخي، ارجع إلى عقلك، ولا تبشِّر على روحك بالموت، فإنك طيِّب بخير وعافية. فقال لي: يا صاحبي، وحياتك، إنك في غد سوف تَعْدمني، وما بقيت عمرك تنظرني، فقلت له: وكيف ذلك؟ فقال لي: في هذا النهار يدفنون زوجتي، ويدفنوني معها في القبر، فإنها عادتنا في بلادنا: إذا ماتت المرأة يدفنون معها زوجها بالحياة، وإن مات الرجل يدفنون معه زوجته بالحياة، حتى لا يتلذَّذ أحد منهم بالحياة، بعد

رفيقه، فقلت له: بالله، إن هذه العادة رديئة جدّاً، وما يقدر عليها أحد! فبينما نحن في ذلك الحديث، إذا بغالب أهل المدينة قد حضروا، وصاروا يعزّون صاحبي في زوجته وفي نفسه، وقد شرعوا في تجهيزها على جري عادتهم، فأحضروا تابوتاً وحملوا فيه المرأة وذلك الرجل معهم، وخرجوا بهما إلى خارج المدينة، وأتوا إلى مكان في جانب الجبل على البحر، وتقدَّموا إلى مكان ورفعوا عنه حجراً كبيراً، فبانَ من تحت ذلك الحجر خرزة من الحجر مثل خرزة البئر، فرموا تلك المرأة فيها، وإذا هو جبّ كبير تحت الجبل ثم إنهم جاؤوا بذلك الرجل، وربطوه تحت صدره في سلبة، وأنزلوه في ذلك الجبّ، وأنزلوا عنده كوز ماء عذب كبير وسبعة أرغفة من الزاد، ولمّا أنزلوه فكَّ نفسه من السلبة فسحبوا السلبة، وغطَّوا فم البئر بذلك الحجر الكبير مثل ما كان، وانصرفوا إلى حال سبيلهم، وتركوا صاحبي عند زوجته في الجبّ! فقلت في نفسي: والله، إن هذا الموت أصعب من الموت الأوّل. ثم إني جئت عند ملكهم وقلت له: يا سيِّدي، كيف تدفنون الحيّ مع الميِّت في بلادكم؟ فقال لي: اعلم أن هذه عادتنا في بلادنا، إذا مات الرجل ندفن معه زوجته، وإذا ماتت المرأة ندفن معها زوجها بالحياة، حتى لا نفرِّق بينهما في الحياة ولا في الممات، وهذه العادة عن أجدادنا. فقلت: يا ملك الزمان، وكذا الرجل الغريب مثلي؛ إذا ماتت زوجته عندكم تفعلون به مثل ما فعلتم بهذا؟ فقال لي: نعم، ندفنه معها ونفعل به كما رأيت. فلمّا سمعت ذلك الكلام منه انشقَّت مرارتي من شدّة الغمّ والحزن على نفسي، وذهل عقلي، وصرت خائفاً من أن تموت زوجتي قبلي، فيدفنوني معها وأنا بالحياة، ثم إني سلَّيت نفسي لعلّي أموت أنا قبلها، ولا يعلم أحد السابق من اللاحق. وصرت أتلاهى في بعض الأمور. فما مضت مدّة يسيرة بعد ذلك، حتى مرضت زوجتي وقد مكثت أيّاماً قلائل، ثم ماتت. فاجتمع غالب الناس يعزّونني، ويعزّون أهلها فيها، وقد جاءني الملك يعزِّيني فيها على جري عادتهم، ثم إنهم جاؤوا لها بغاسلة فغسَّلوها وألبسوها أفخر ما عندها من الثياب والمصاغ والقلائد والجواهر من المعادن. فلمّا ألبسوا زوجتي وحطّوها في التابوت وحملوها وراحوا بها

إلى ذلك الجبل، ورفعوا الحجر عن فم الجبّ، وألقوها فيه، أقبل جميع أصحابي وأهل زوجتي يودِّعونني في روحي، وأنا أصيح بينهم: أنا رجل غريب، وليس لي صبر على عادتكم، وهم لا يسمعون قولي، ولا يلتفتون إلى كلامي. ثم إنهم أمسكوني وربطوني بالغصب وربطوا معي سبعة أقراص من الخبز وكوز ماء عذب، على جري عادتهم، وأنزلوني في ذلك البئر فإذا هو مغارة كبيرة تحت ذلك الجبل، وقالوا لي: فكّ نفسك من الحبال، فلم أرضَ أن أفكّ نفسي، فرموا عليَّ الحبال، ثم غطّوا فم المغارة بذلك الحجر الكبير الذي كان عليها، وراحوا إلى حال سبيلهم.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (542)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا حطّوه في المغارة مع زوجته التي ماتت، وردّوا باب المغارة، وراحوا إلى حال سبيلهم، قال: وأمّا أنا فإني رأيت في تلك المغارة أمواتاً كثيرين، وكانت رائحتها منتنة كريهة، فلمت نفسي على ما فعلته وقلت: والله، إني أستحقّ جميع ما يجري لي، وما يقع لي. ثم إني صرت لا أعرف الليل من النهار، وصرت أتقوَّت باليسير، ولا آكل حتى يكاد أن يقطعني الجوع، ولا أشرب حتى يشتدّ بي العطش، وأنا خائف أن يفرغ ما عندي من الزاد والماء، وقلت: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم.. أيّ شيء بلاني بالزواج في هذه المدينة؟ وكلّما قلت إني خرجت من مصيبة أقعت في مصيبة أقوى منها! والله، إن هذا الموت موت مشؤوم. يا ليتني غرقت في البحر أو متّ في الجبال، فذلك أحسن لي من هذا الموت الرديء. ولم أزل على هذه الحالة، ألوم نفسي، ثم نمت على عظام الأموات، واستعنت بالله حتى أحرقَ قلبي الجوع، وألهبني العطش فقعدت وحسست على الخبز وأكلت منه شيئاً قليلاً، وتجرَّعت عليه شيئاً قليلاً من الماء، ثم إني قمت ووقفت على حيلي، وصرت أمشي في جانب تلك المغارة فرأيتها متَّسعة الجوانب خالية البطون، وفي أرضها أموات كثيرون وعظام رميمة من قديم الزمان. عند ذلك، عملت لي مكاناً في جانب المغارة بعيداً عن الموتى الطريِّين، وصرت أنام فيه وقد قَلَّ زادي

وما بقي معي إلّا شيء يسير، كنت آكل في كلّ يوم أو أكثر أكلة، وأشرب شربة؛ خوفاً من فراغ الماء والزاد من عندي، قبل موتي. ولم أزل على هذه الحالة، إلى أن جلست، يوماً من الأيَّام، أفكِّر في نفسي: كيف أفعل إذا فرغ الزاد والماء من عندي؟ وإذا بالصرّة قد تزحزحت من مكانها، ونزل منه النور عندي، فقلت: يا ترى، ما الخبر؟ وإذا بالقوم واقفون على رأس البئر وقد أنزلوا رجلاً ميِّتاً وامرأة معه بالحياة، وهي تبكي وتصيح على نفسها، وقد أنزلوا عندها شيئاً كثيراً من الزاد والماء، فصرت أنظر المرأة وهي لم تنظرني، وقد غطّوا فم البئر بالحجر، وانصرفوا إلى حال سبيلهم، فقمت أنا وأخذت في يدي قصبة رجل ميِّت، وجئت إلى المرأة وضربتها في وسط رأسها، فوقعت على الأرض مغشيّاً عليها، فضربتها ثانياً وثالثاً، فماتت، فأخذت خبزها وما معها، ورأيت عليها شيئاً كثيراً من الحلي والحلل والقلائد والجواهر والمعادن، ثم إني أخذت الماء والزاد الذي مع المرأة، وقعدت في الموضع الذي كنت عملته في جانب المغارة لأنام فيه، وصرت آكل من ذلك الزاد شيئاً قليلاً، على قدر ما يقوِّتني حتى لا يفرغ بسرعة، فأموت من الجوع والعطش. وأقمت في تلك المغارة مدّة من الزمان، وأنا كلّما دفنوا أحداً أقتل مَنْ دُفِن معه بالحياة، وآخذ أكله وشربه أتقوَّت به، إلى أن كنت نائماً، يوماً منَ الأيّام، فاستيقظت من منامي وسمعت شيئاً يكركب في جانب المغارة، فقلت: ما يكون هذا؟ ثم إني قمت ومشيت نحوه، ومعي قصبة رجل ميِّت فلمّا أحسَّ بي فَرّ وهرب مني، فإذا هو وحش فتبعته إلى صدر المغارة، فبانَ لي نور من مكان صغير مثل النجمة، تارةً يبين لي، وتارةً يخفى عني. فلمّا نظرته قصدت نحوه، وبقيت كلَّما أتقرَّب منه يظهر لي نور منه ويتَّسع، فعند ذلك تحقَّقت أنه خرق في تلك المغارة ينفذ إلى الخلاء، فقلت في نفسي: لابدَّ أن يكون لهذا المكان حركة: إمّا أن يكون مدفناً ثانياً مثل الذي نزلوني منه، وإمّا أن يكون تخريقاً من هذا المكان. ثم إني تفكَّرت في نفسي ساعة من الزمان، ومشيت إلى ناحية النور، وإذا به ثقب في ظهر الجبل من الوحوش، ثقبوه، وصاروا يدخلون منه إلى هذا المكان ويأكلون الموتى حتى يشبعوا، ويطلعوا من ذلك الثقب. فلمّا

رأيته هدأت روحي واطمأنَّت نفسي، وارتاح قلبي، وأيقنت بالحياة بعد الممات، وصرت كأني في المنام. ثم إني عالجت حتى طلعت من ذلك الثقب، فرأيت نفسي على جانب البحر المالح، فوق جبل عظيم وهو قاطع بين البحرين وبين الجزيرة والمدينة، ولا يستطيع أحد الوصول إليه فحمدت الله (تعالى)، وشكرته وفرحت فرحاً عظيماً، وقوِيَ قلبي. ثم إني، بعد ذلك، رجعت من الثقب إلى المغارة، ونقلت جميع ما فليها من الزاد والماء الذي كنت وفَّرته، ثم إني أخذت من ثياب الأموات ولبست شيئاً منها غير الذي كان عليَّ، وأخذت ممّا عليهم شيئاً كثيراً من أنواع العقود والجواهر وقلائد اللؤلؤ والمصاغ من الفضّة والذهب المرصَّع بأنواع المعادن والتحف، وربطته في ثياب الموتى، وأخرجتها من الثقب إلى ظهر الجبل، ووقفت على جانب البحر. وبقيت في كلّ يوم أنزل المغارة، ثم أطلع وآخذ من كلّ من دفنوه زاده وماءه وأقتله، سواء أكان ذكراً أم كان أنثى، وأطلع من ذلك الثقب فأجلس على جانب البحر لأنتظر الفرج من الله (تعالى) بمركب تجوز عليَّ. وصرت أنقل من تلك المغارة كلّ شيء رأيته من المصاغ، وأربطه في ثياب الموتى، ولم أزل على هذه الحالة مدّة من الزمان.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (543)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري صار ينقل من تلك المغارة ما يلقاه فيها من مصاغ وغيره، ويجلس على جانب البحر مدّة من الزمان. قال: فبينما أنا جالس، يوماً من الأيّام، على جانب البحر، وأنا متفكِّر في أمري، وإذا بمركب سائر في وسط البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، فأخذت في يدي ثوباً أبيض من ثياب الموتى وربطته في عكَّاز وجريت به على شاطئ البحر، وصرت أشير إليهم بذلك الثوب حتى لاحت منهم التفاتة، فرأوني وأنا في رأس الجبل، فجاؤوا إليَّ بعد أن سمعوا صوتي، وأرسلوا إلي زورقاً من عندهم، وفيه جماعة من المركب. ولم نزل مسافرين من جزيرة إلى جزيرة ومن بحر إلى بحر، وأنا أرجو النجاة، وصرت فرحاناً بسلامتي، وكنت كلَّما أتفكَّر

قعودي في المغارة مع زوجتي يغيب عقلي. وقد وصلنا، بقدرة الله (تعالى)، مع السلامة، إلى مدينة البصرة، فطلعت إليها، وأقمت فيها أيّاماً قلائل، وبعدها جئت إلى مدينة بغداد، فجئت إلى حارتي ودخلت داري وقابلت أهلي وأصحابي وسألت عنهم، ففرحوا بسلامتي وهنّأوني، وقد خزَّنت جميع ما كان معي من الأمتعة في حواصلي وتصدَّقت، ووهبت، وكسوت الأيتام والأرامل، وصرت في غاية البسط والسرور، وقد عدت إلى ما كنت عليه من المعاشرة والمرافقة ومصاحبة الإخوان واللهو والطرب، وهذا أعجب ما صار لي في السفرة الرابعة!

ولكن، يا أخي، تعشَّ عندي، وخذ عادتك، وفي غد تجيء عندي فأخبرك بما كان لي وما جرى لي في السفرة الخامسة، فإنها أعجب وأغرب ممّا سبق! ثم أمر له بمئة مثقال ذهب، ومَدّ السماط، وتعشّى الجماعة وانصرفوا إلى حال سبيلهم، وهم متعجِّبون غاية العجب، وكلٌّ حكاية أعظم من التي قبلها. وقد راح السندباد الحمّال إلى منزله، وبات في غاية البسط والانشراح، وهو متعجِّب! ولمّا أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، قام السندباد البري وصلَّى الصبح، ثم تمشّى إلى أن دخل دار السندباد البحري، وصبَّح عليه فرحَّب به، وأمره بالجلوس عنده حتى جاء بقيّة أصحابه، فأكلوا وشربوا وتلذَّذوا وطربوا، ودارت بينهم المحادثة، فابتدأ السندباد البحري بالكلام.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.



الحكاية الخامسة

(السفرة الخامسة)

وفي الليلة (544)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري ابتدأ بالكلام فيما جرى وما وقع له في الحكاية الخامسة، فقال: اعلموا، يا إخواني، أني لمّا رجعت من السفرة الرابعة وقد غرقت في اللهو والطرب والانشراح، نسيت جميع ما كنت لقيته وما جرى لي، وما قاسيته من شدّة فرحي بالمكسب والربح والفوائد، فحدَّثتني نفسي بالسفر والتفرُّج في بلاد الناس وفي الجزائر، فقمت وهممت في ذلك الوقت واشتريت بضاعة نفيسة تناسب البحر، وحزمت الحمول، وسرت من مدينة بغداد وتوجَّهت إلى مدينة البصرة، ومشيت على جانب الساحل فرأيت مركباً كبيراً مليحاً فأعجبتني فاشتريتها، وكانت عدَّتها جديدة، واكتريت له ريِّساً وبحريّة، ونظرت عليها عبيدي وغلماني، وأنزلت فيها حمولي. وجاءني جماعة من التجّار فنزَّلوا حمولهم

فيها، ودفعوا لي الأجرة، وسرنا ونحن في غاية الفرح والسرور، وقد استبشرنا بالسلامة والكسب، ولم نزل مسافرين من جزيرة إلى جزيرة ومن بحر إلى بحر، ونحن نتفرَّج في الجزائر والبلدان، ونطلع إليها نبيع فيها ونشتري. ولم نزل على هذه الحالة حتى وصلنا، يوماً من الأيّام، إلى جزيرة خالية من السكّان، وليس فيها أحد، وهي خراب وفيها قبّة عظيمة بيضاء كبيرة الحجم، فطلعنا نتفرَّج عليها، وإذا هي بيضة رخّ كبيرة. فلمّا طلع التجّار إليها، وتفرَّجوا عليها، لم يعلموا أنها بيضة رخ فضربوها بالحجارة فكُسرت، ونزل منها ماء كثير وقد بان منها فرخ الرخّ، فسحبوه منها وأخرجوه من تلك البيضة وذبحوه، وأخذوا منه لحماً كثيراً، وأنا في المركب، فلم أعلم بما فعلوه ولم يطلعوني عليه، فعند ذلك قال لي واحد من الركّاب: يا سيِّدي، قم تفرَّج على هذه البيضة التي تحسبها قبّة، فقمت لأتفرَّج عليها، فوجدت التجّار يضربون البيضة، فصحت بهم: لا تفعلوا هذا الفعل، فيطلع طير الرخّ ويكسر مركبنا، ويهلكنا، فلم يسمعوا كلامي. فبينما هم على هذه الحالة وإذا بالشمس قد غابت عنّا، والنهار أظلم، وصار فوقنا غمامة، أظلمَ الجوُّ منها، فرفعنا رؤوسنا ننظر ما الذي حال بيننا وبين الشمس، فرأينا أجنحة الرخ وقد حجبت عنّا ضوء الشمس حتى أظلم الجوّ، وذلك أنه لمّا جاء الرخّ رأى بيضته انكسرت فتبعنا وصاح علينا، فجاءت رفيقته، وصارا حائمَيْن على المركب يصرخان بصوت أشدّ من الرعد، فصحت أنا على الريِّس والبحرية، وقلت لهم: ادفعوا المركب، واطلبوا السلامة قبل أن نهلك، فأسرع الريِّس وطلع التجّار، وسرنا في تلك الجزيرة. فلما رآنا الرخّ قد سرنا في البحر غاب عنّا ساعة من الزمان، وكنّا قد سرنا وأسرعنا في السير بالمركب، نريد الخلاص منهما والخروج من أرضهما، وإذا بهما قد تبعانا وأقبلا علينا وفي رجْل كلّ واحد منهما صخرة عظيمة من الجبل فألقى الرخّ الذكَر الصخرة التي كانت معه علينا، فجذب الريِّس المركب وقد أخطأها نزول الصخرة بشيء قليل، فنزلت في البحر تحت المركب، فقام بنا المركب وقعد من عِظَم وقوعها في البحر، وقد رأينا قعر البحر من شدّة عزمها.

ثم إن رفيقة الرخّ ألقت علينا الصخرة التي معها، وهي أصغر من الأولى، فنزلت بالأمر المقدَّر على مؤخِّر المركب فكسرته وطيَّرت الدفّة عشرين قطعة، وقد غرق جميع ما كان في المركب بالبحر، فصرت أحاول النجاة من حلاوة الروح، فقدَّر الله (تعالى) لي لوحاً من ألواح المركب، فتعلَّقت فيه، وركبته وصرت أقذف عليه برجلي والريح والموج يساعداني على السير، وكان المركب قد غرق بالقرب من جزيرة في وسط البحر، فرمتني المقادير- بإذن الله (تعالى)- إلى تلك الجزيرة فطلعت عليها وأنا على آخر نفس، وفي حالة الموت من شدّة ما قاسيته من التعب والمشقّة والجوع والعطش. ثم إني انطرحت على شاطئ البحر ساعة من الزمان، حتى ارتاحت نفسي، واطمأنّ قلبي، ثم مشيت في تلك الجزيرة فرأيتها كأنها روضة من رياض الجنّة: أشجارها يانعة، وأنهارها دافقة، وطيورها مغرِّدة تسبِّح من له العزّة والبقاء. وفي تلك الجزيرة شيء كثير من الأشجار والفواكه وأنواع الأزهار، فعند ذلك أكلت من الفواكه حتى شبعت، وشربت من تلك الأنهار حتى رويت، وحمدت الله (تعالى) على ذلك، وأثنيت عليه.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (545)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري حمد الله، وأثنى عليه، وقال: ولم أزل على هذه الحالة قاعداً في الجزيرة إلى أن أمسى المساء، وأقبل الليل وأنا مثل القتيل ممّا حصل لي من التعب والخوف، ولم أسمع في تلك الجزيرة صوتاً، ولم أرَ فيها أحداً، ولم أزل راقداً فيها إلى الصباح، ثم قمت على حيلي، ومشيت بين تلك الأشجار فرأيت ساقية على عين ماء جارية، وعند تلك الساقية شيخ جالس مليح وذلك الشيخ مؤتزر بإزار من ورق الأشجار، فقلت في نفسي: لعلَّ هذا الشيخ طلع إلى هذه الجزيرة، وهو من الغرقى الذين كُسِرت بهم المركب، ثم دنوت منه وسلَّمت عليه فردَّ عليَّ السلام بالإشارة، ولم يتكلَّم. فقلت له: يا شيخ، ما سبب جلوسك في هذا المكان؟ فحرَّكَ رأسه وتأسَّف، وأشار لي بيده؛

أن احملني على رقبتك، وانقلني من هذا المكان إلى جانب الساقية الثانية، فقلت في نفسي: اعمل مع هذا معروفاً، وأنقله إلى المكان الذي يريده، لعلّ ثوابه يحصل لي، فتقدَّمت إليه وحملته على أكتافي، وجئت إلى المكان الذي أشار لي إليه، وقلت له: انزل على مهلك، فلم ينزل عن أكتافي، وقد لَفَّ رجليه على رقبتي، فنظرت إلى رجليه فرأيتهما مثل جلد الجاموس في السواد والخشونة، ففزعت منه وأردت أن أرميه من فوق أكتافي، فقرط على رقبتي برجليه، وخنقني بهما حتى اسودَّت الدنيا في وجهي، وغبت عن وجودي، ووقعت على الأرض مغشيّاً عليَّ مثل الميِّت، فرفع ساقيه وضربني على ظهري وعلى أكتافي فحصل لي ألم شديد، فنهضت قائماً به وهو راكب فوق أكتافي، وقد تعبت منه فأشار لي بيده؛ أن ادخلْ بين الأشجار، فدخلت إلى أطيب الفواكه وكنت إذا خالفته يضربني برجليه ضرباً أشدّ من ضرب الأسواط. ولم يزل يشير إليَّ بيده إلى كلّ مكان أراده، وأنا أمشي به إليه، وإن توانيت أو تمهَّلت ضربني وأنا معه شبه الأسير، وقد دخلنا في وسط الجزيرة بين الأشجار، وصار يبول ويغوط على أكتافي، ولا ينزل ليلاً ولا نهاراً، وإذا أراد النوم يلفّ رجليه على رقبتي وينام قليلاً، ثم يقوم ويضربني، فأقوم مسرعاً به ولا أستطيع مخالفته من شدّة ما أقاسي منه، وقد لمت نفسي على ما كان منّي من حمله والشفقة عليه. ولم أزل معه على هذه الحالة، وأنا في أشدّ ما يكون التعب، وقلت في نفسي: أنا فعلت مع هذا خيراً، فانقلب عليَّ شراً. والله، ما بقيت أفعل مع أحد خيراً طول عمري، وقد صرت أتمنّى الموت من الله (تعالى)، في كلّ وقت وكل ساعة؛ من كثرة ما أنا فيه من التعب والمشقّة. ولم أزل على هذه الحالة مدّة من الزمان، إلى أن جئت به، يوماً من الأيّام، إلى مكان في الجزيرة، فوجدت فيه يقطيناً كثيراً ومنه شيء يابس، فأخذت منه واحدة كبيرة يابسة، وفتحت رأسها وصفَّيتها إلى شجرة العنب فملأتها منها، وسددت رأسها ووضعتها في الشمس، وتركتها مدّة أيّام حتى صارت خمراً صافياً، وصرت كلّ يوم أشرب منه لأستعين به على تعبي مع ذلك الشيطان المريد، وكنت كلّما سكرت منها تقوى

همَّتي، فنظرني، يوماً من الأيَّام، وأنا أشرب، فأشار لي بيده: ما هذا؟ فقلت له: هذا شيء مليح يقوّي القلب، ويشرح الخاطر. ثم إني جريت به ورقصت بين الأشجار، وحصل لي نشوة من السكر فصفَّقت وغنَّيت وانشرحت، فلمّا رآني على هذه الحالة أشار لي أن أناوله اليقطينة ليشرب منها فخفت منه، وأعطيتها له فشرب ما كان باقياً فيها ثم رماها على الأرض، وقد حصل له طرب، فصار يهتزّ على أكتافي، ثم إنه سَكِر وغرق في السكْر، وقد ارتخت جميع أعضائه وفرائصه، وصار يتمايل من فوق أكتافي، فلمّا علمت بسُكْره، وأنه غاب عن الوجود، مددت يدي إلى رجليه وفككتهما من رقبتي، ثم ملت به إلى الأرض، وألقيته عليها.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (547)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا ألقى الشيطان عن أكتافه، على الأرض، قال: فما صدَّقت أني خلصت نفسي، ونجوت من الأمر الذي كنت فيه، ثم أني خفت منه أن يقوم من سكْره فيؤذيني، فأخذت صخرة عظيمة من بين الأشجار وجئت إليه فضربته على رأسه، وهو نائم، فاختلط لحمه بدمه وقد قُتِل، فلا رحمة الله عليه. بعد ذلك، مشيت في الجزيرة، وقد ارتاح خاطري وجئت إلى المكان الذي كنت فيه على ساحل البحر، ولم أزل في تلك الجزيرة آكل من أثمارها وأشرب من أنهارها مدّة من الزمان، وأنا أترقَّب مركباً تمرّ بي، إلى أن كنت جالساً يوماً من الأيّام، متفكِّرا فيما جرى لي وما كان من أمري، وأقول في نفسي: يا ترى، هل يبقيني الله سالماً، ثم أعود إلى بلادي واجتمع بأهلي وأصحابي؟، وإذا بمركب قد أقبلت من وسط البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، ولم تزل سائرة حتى رست على تلك الجزيرة، وطلع منها الركّاب إلى الجزيرة، فمشيت إليهم، فلمّا نظروني أقبلوا عليَّ كلُّهم مسرعين، واجتمعوا حولي، وقد سألوني عن حالي وما سبب وصولي إلى تلك الجزيرة، فأخبرتهم بأمري وما جرى لي فتعجَّبوا من ذلك غاية العجب، وقالوا: إن هذا

الرجل الذي ركب على أكتافك يسمّى شيخ البحر، وما أحد دخل تحت أعضائه وخلص منه إلّا أنت، والحمدلله على سلامتك. ثم إنهم جاؤوا إليّ بشيء من الطعام، فأكلت حتى اكتفيت وأعطوني شيئاً من الملبوس لبسته، وسترت به عورتي، ثم أخذوني معهم في المركب. وقد سرنا أيّاماً ولياليَ، فرمَتْنا المقادير على مدينة عالية البناء جميع بيوتها مطلّة على البحر، وتلك المدينة يقال لها (مدينة القرود)، وإذا دخل الليل يأتي الناس الذين يسكنون في تلك المدينة، فيخرجون من هذه الأبواب التي على البحر، ثم ينزلون في زوارق ومراكب ويبيتون في البحر خوفاً من القرود أن ينزلوا عليهم في الليل، من الجبال، فطلعت أتفرَّج في تلك المدينة، فسافرت المركب ولم أعلم، فندمت على طلوعي إلى تلك المدينة، وتذكَّرت رفقتي وما جرى لي مع القرود، أوَّلاً وثانياً، فقعدت أبكي وأنا حزين، فتقدَّم إليّ رجل من أصحاب هذه البلد وقال: يا سيِّدي، كأنك غريب في هذه الديار! فقلت له: نعم، أنا غريب ومسكين، وكنت في مركب قد رست على تلك المدينة، فطلعت منها لأتفرَّج في المدينة، وعدت إليها فلم أرَها، فقال: قم وسِرْ معنا. انزل الزورق فإنك إن قعدت في المدينة ليلاً أهلتك القرود، فقلت: له سمعاً وطاعة. وقمت من وقتي وساعتي، ونزلت معهم في الزورق، ودفعوه من البرّ حتى أبعدوه عن ساحل البحر مقدار ميل، وباتوا تلك الليلة وأنا معهم في الزورق. فلمّا أصبح الصباح رجعوا بالزورق إلى المدينة، وطلعوا، وراح كلّ واحد منهم إلى شغله، ولم تزل هذه عادتهم كلّ ليلة، وكلّ من تخلَّف منهم في المدينة، بالليل، جاءت إليه القرود فأهلكته. وفي النهار، تطلع القرود إلى خارج المدينة فتأكل من أثمار البساتين، وترقد في الجبال إلى وقت المساء ثم تعود إلى المدينة، وهذه المدينة في أقصى بلاد السودان. ومن أعجب ما وقع لي من أهل هذه المدينة أن شخصاً من الجماعة الذين بتّ معهم في الزورق، قال لي: يا سيِّدي، أنت غريب في هذه الديار فهل لك صنعة تشتغل فيها؟ فقلت: لا والله، يا أخي، ليس لي صنعة، ولست أعرف عمل شيء، وأنا رجل تاجر صاحب مال ونوال، وكان لي مركب ملكي مشحونة

بأموال كثيرة وبضائع فكسرت في البحر وغرق جميع ما كان فيها، وما نجوتُ من الغرق إلّا بإذن الله، فرزقني الله بقطعة لوح ركبتها، فكانت السبب في نجاتي من الغرق. عند ذلك قام الرجل، وأحضر لي مخلاة من قطن، وقال لي: خذ هذه المخلاة، واملأها حجارة زلط من هذه المدينة، ثم أخرج مع جماعة من أهل المدينة، وأنا أرافقك إليهم، وأوصيهم بك. افعل كما يفعلون؛ فلعلَّك تعمل بشيء تستعين به على سفرك وعودك إلى بلادك. ثم إن ذلك الرجل أخذني وأخرجني إلى خارج المدينة، فنقَّيت حجارة صغيرة من الزلط، وملأت تلك المخلاة، وإذا بجماعة خارجين من المدينة، فأرفقني بهم وأوصاهم بي، وقال لهم: هذا رجل غريب فخذوه معكم وعلِّموه اللقط، فلعلّه يعمل بشيء يتقوَّت به، ويبقى لكم الأجر والثواب. فقالوا: سمعاً وطاعةً. ورحَّبوا بي وأخذوني معهم، وساروا وكلّ واحد منهم معه مخلاة مثل المخلاة التي معي مملوءة زلطاً، ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى وادٍ واسع فيه أشجار كثيرة عالية، لا يقدر أحد أن يطلع عليها. وفي ذلك الوادي قرود كثيرة فلما رأتنا هذه القرود نفرت منّا، وتسلَّقت تلك الأشجار، فصاروا يرجمون القرود بالحجارة التي معهم في المخالي، والقرود تقطع من ثمار تلك الأشجار وترمي بها هؤلاء الرجال، فنظرت تلك الثمار التي ترميها القرود وإذا هي جوز هندي، فلمّا رأيت ذلك العمل من القوم اخترت شجرة عظيمة عليها قرود كثيرة، وجئت إليها وصرت أرجم هذه القرود فتقطع من ذلك الجوز وترميني به، فأجمعه كما يفعل القوم، فما فرغت الحجارة من مخلاتي حتى جمعت شيئاً كثيراً. ولمّا فرغ القوم من هذا العمل لمّوا جميع ما كان معهم وحمل كلّ واحد منهم ما أطاقه، ثم عدنا إلى المدينة في باقي يومنا. فجئت إلى الرجل صاحبي الذي أرفقني بالجماعة، وأعطيته جميع ما جمعت، وشكرت فضله، فقال لي: خذ هذا بعه وانتفع بثمنه، ثم أعطاني مفتاح مكان في داره، وقال لي: ضع في هذا المكان هذا الذي بقي معك من الجوز، واطلع في كلّ يوم مع الجماعة مثل ما طلعت هذا اليوم، والذي تجيء به ميِّزْ منه الرديء، ثم بعْه وانتفع بثمنه واحفظه عندك

في هذا المكان فلعلَّك تجمع منه شيئاً يعينك على سفرك. فقلت: أجرك على الله (تعالى). وفعلت مثل ما قال لي، ولم أزل في كلّ يوم أملأ المخلاة من الحجارة، وأطلع مع القوم، وأعمل مثل ما يعملون. وقد صاروا يتواصون بي ويدلّونني على الشجرة التي فيها الثمر الكثير. ولم أزل على هذا الحال مدّة من الزمان، وقد اجتمع عندي شيء كثير من الجوز الهندي الطيِّب، وبعت شيئاً كثيراً، وكثر عندي ثمنه، وصرت أشتري كلّ شيء رأيته، ولاقَ لخاطري، وقد صفا وقتي وزاد في المدينة حظّي. ولم أزل على هذه الحالة مدّة، فبينما أنا واقف على جانب البحر وإذا بمركب قد وردت إلى تلك المدينة، ورست على الساحل، وفيها تجّار معهم بضائع، فصاروا يبيعون ويشترون ويقايضون على شيء من الجوز الهندي وغيره، فجئت عند صاحبي وأعلمته بالمركب التي جاءت، وأخبرته بأني أريد السفر إلى بلادي، فقال: الرأي لك. فودَّعته وشكرته على إحسانه إليّ، ثم إني جئت عند المركب، وقابلت الريِّس، وأكتريت معه، وأنزلت ما كان معي من الجوز وغيره في تلك المركب، ثم ساروا بالمركب.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (548)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا نزل من مدينة القرود في المركب، وأخذ ما كان معه من الجوز الهندي وغيره، واكترى مع الريِّس، قال: وقد ساروا بالمركب في ذلك اليوم، ولم نزل سائرين من جزيرة إلى جزيرة، ومن بحرإلى بحر، إلى أن وصلنا البصرة، فطلعت إليها، وأقمت بها مدّة يسيرة، ثم توجَّهت إلى مدينة بغداد، ودخلت حارتي، وجئت إلى بيتي، وسلَّمت على أهلي وأصحابي فهنّأوني بالسلامة، ثم خزَّنت جميع ما كان معي من البضائع والأمتعة، وكسوت الأيتام والأرامل، وتصدَّقت ووهبت وهاديت أهلي وأصحابي وأحبّابي، وقد عوَّض الله عليَّ بأكثر ممّا راح مني أربع مرّات، وقد نسيت ما جرى لي وما قاسيته من التعب، بكثرة الربح والفوائد، وعدت إلى ما كنت عليه في الزمن الأوّل من المعاشر

والصحبة وهذا أعجب ما كان من أمري في السفرة الخامسة... ولكن تعشّوا الآن، وفي غد تعالوا أخبركم بما كان في السفرة السادسة؛ فإنها أعجب من هذه. عند ذلك، مدّوا السماط وتعشّوا. فلمّا فرغوا من العشاء أمر السندباد للحمّال بمئة مثقال من الذهب، فأخذها وانصرف وهو متعجِّب من ذلك الأمر، وبات السندباد الحمّال في بيته، ولمّا أصبح الصباح قام وصلّى الصبح ثم مشى إلى أن وصل إلى دار السندباد البحري، فدخل عليه، وأمره بالجلوس، فجلس عنده. ولم يزل يتحدَّث معه حتى جاء بقيّة أصحابه، فتحدَّثوا ومدّوا السماط، وأكلوا، وشربوا، وتلذذوا، وطربوا.



الحكاية السادسة

(السفرة السادسة)

وابتدأ السندباد البحري يحدِّثهم بحكاية السفرة السادسة، فقال لهم: اعلموا- يا إخواني وأحبّائي وأصحابي- أني لمّا جئت من تلك السفرة الخامسة، ونسيت ما كنت قاسيته بسبب اللهو والطرب والبسط والانشراح، وأنا في غاية الفرح والسرور. ولم أزل على هذه الحالة إلى أن جلست يوماً من الأيّام في حظّ وسرور وانشراح زائد، فبينما أنا جالس إذا بجماعة من التجّار وردوا عليَّ، وعليهم آثار السفر، فعند ذلك تذكَّرت أيّام قدومي من السفر، وفرحي بلقاء أهلي وأصحابي وأحبّائي، وفرحي ببلادي، واشتاقت نفسي إلى السفر والتجّارة، فعزمت على السفر واشتريت لي بضائع نفيسة فاخرة تصلح للبحر، وحملت حمولي وسافرت من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، فرأيت سفينة عظيمة فيها تجّار وأكابر، ومعهم بضائع نفيسة، فنزلت

حمولي معهم في هذه السفينة وسرنا، بالسلامة، من مدينة البصرة.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (549)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا جهَّز حموله ونزّلها في المركب من مدينة البصرة، وسافر، قال: ولم نزل مسافرين من مكان إلى مكان ومن مدينة إلى مدينة، ونحن نبيع ونشتري ونتفرَّج على بلاد الناس، وقد طاب لنا السعد والسفر، واغتنمنا المعاش إلى أن كنّا سائرين، يوماً من الأيّام، وإذا بريِّس المركب قد صرخ وصاح، ورمى عمامته، ولطم على وجهه، ونتف لحيته، ووقع في بطن المركب من شدّة الغمّ والقهر، فاجتمع عليه جميع التجّار والركّاب وقالوا له: يا ريِّس، ما الخبر؟ فقال لهم: اعلموا- يا جماعة- أننا قد تهنا بمركبنا، وخرجنا من البحر الذي كنّا فيه، ودخلنا بحراً لم نعرف طرقه، وإذا لم يقيِّض الله لنا شيئاً يخلِّصنا من هذا البحر هلكنا بأجمعنا، فادعوا الله (تعالى) أن ينجِّينا من هذا الأمر. ثم إن الريس قام وصعد على الصاري، وأراد أن يحلّ القلوع، فقويَ الريح على المركب، فردَّها على مؤخّرها، فانكسرت دفَّتها قرب جبلٍ عالٍ، فنزل الريِّس من الصاري، وقال: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. لا يقدر أحد أن يمنع المقدور، واعلموا أننا قد وقعنا في مهلكة عظيمة، ولم يبق لنا منها خلاص ولا نجاة. فبكى جميع الركاب على أنفسهم، وودَّع بعضهم بعضاً لفراغ أعمارهم، وانقطع رجاؤهم، ومال المركب على ذلك الجبل، فانكسر، وتفرَّقت الواحة، فغرق جميع ما فيها، ووقع التجّار في البحر؛ فمنهم من غرق، ومنهم من تمسَّك بذلك الجبل وطلع عليه، وكنت أنا من جملة من طلع على ذلك الجبل، وإذا فيه جزيرة كبيرة، عندها كثير من المراكب المكسَّرة، وفيها أرزاق كثيرة على شاطئ البحر من الذي يطرحه البحر من المراكب التي كُسرت، وغرق ركّابها، وفيها شيء كثير يحيّر العقل والفكر من المتاع والأَموال التي يلقيها البحر على جوانبها. عند ذلك، طلعت على تلك الجزيرة ومشيت فيها، فرأيت في وسطها عين ماء

عذب حارّ، خارج من تحت أوَّل ذلك الجبل، وداخل في آخره من الجانب الثاني. عند ذلك، طلع مَنْ نجا من الركّاب على ذلك الجبل إلى الجزيرة، وانتشروا فيها وقد ذهلت عقولهم من ذلك، وصاروا مثل المجانين من كثرة ما أروا في الجزيرة من الأمتعة والأموال على ساحل البحر. وقد رأيت، في وسط تلك العين، شيئاً كثيراً من أصناف الجواهر والمعادن واليواقيت واللآلئ الكبار الملوكية، وهي مثل الحصى في مجاري الماء في تلك الغيطان. وجميع أرض تلك العين تبرق من كثرة ما فيها من المعادن وغيرها. ورأينا كثيراً في تلك الجزيرة من أعلى: العود الصيني، والعود القماري، وفي تلك الجزيرة عين نابعة من صنف العنبر الخام وهو يسيل مثل الشمع على جانب تلك العين من شدّة حرّ الشمس، ويمتد على ساحل البحر فتطلع الهوايش من البحر وتبتلعه ثم تنزل في البحر، فيحمى في بطونها فتقذفه من أفواهها في البحر فيجمد على وجه الماء، وعند ذلك يتغيرّ لونه وأحواله فتقذفه الأمواج إلى جانب البحر، فيأخذه السوّاحون والتجّار الذين يعرفونه فيبيعونه. أمّا العنبر الخالص من الابتلاع فإنه يسيل على جانب تلك العين، ويتجمَّد بأرضه، وإذا طلعت عليه الشمس يسيح وتبقى منه رائحة ذلك الوادي كلّه مثل المسك، وإذا زالت عنه الشمس يجمد. وذلك المكان، الذي هو فيه هذا العنبر الخام، لا يقدر أحد على دخوله، ولا يستطيع سلوكه فإن الجبل محاط بتلك الجزيرة، ولا يقدر أحد على صعود الجبل. ولم نزل دائرين في تلك الجزيرة نتفرَّج على ما خلق الله (تعالى) فيها من الأرزاق، ونحن متحيرِّون في أمرنا، وفيما نراه، وعندنا خوف شديد. وقد جمعنا على جانب الجزيرة شيئاً قليلاً من الزاد، فصرنا نوفِّره ونأكل منه، في كلّ يوم أو يومين، أكلة واحدة، ونحن خائفون من أن يفرغ الزاد منّا فنموت كمداً من شدّة الجوع والخوف، وكلّ من مات منّا نغسله ونكفِّنه في ثياب وقماش من الذي يطرحه البحر على جانب الجزيرة، حتى مات منّا خلق كثير، ولم يبقَ إلّا جماعة قليلة فضعفنا بوجع البطن من البحر، وأقمنا مدّة قليلة، فمات جميع أصحابي ورفقائي، واحداً بعد واحد، وكلّ من مات منهم

ندفنه. وبقيت في تلك الجزيرة وحدي، وبقي معي زاد قليل، بعد أن كان كثيراً، فبكيت على نفسي وقلت: يا ليتني متّ قبل رفقائي، وكانوا غسلوني ودفنوني، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (550)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا دفن رفقاءه جميعاً، وصار في الجزيرة وحده، قال: ثم إني أقمت مدّةً يسيرة، ثم قمت حفرت لنفسي حفرة عميقة في جانب تلك الجزيرة، وقلت في نفسي: إذا ضعفت، وعلمت أن الموت قد أتاني، أرقد في هذا القبر فأموت فيه، ويبقى الريح يسفي الرمل عليَّ، فيغطّيني وأصير مدفوناً فيه. وصرت ألوم نفسي على قلّة عقلي، وخروجي من بلادي ومدينتي، وسفري إلى البلاد بعد الذي قاسيته أوّلاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، وما من سفرة من الأسفار إلّا وأقاسي فيها أهوالاً وشدائد أشقّ وأصعب من الأهوال التي قبلها، وما أصدق بالنجاة والسلامة وأتوب عن السفر في البحر وعن عودي إليه، ولست محتاجاً لمال وعندي شيء كثير، والذي عندي لا أقدر أن أفنيه، ولا أضيِّع نصفه في باقي عمري، وعندي ما يكفيني وزيادة. ثم إني تفكَّرت في نفسي وقلت: والله، لابدّ أن هذا النهر له أوّل وآخر، ولابدّ له من مكان يخرج منه إلى العمار. والرأي السديد عندي أن أعمل لي فلكاً صغيراً على قدر ما أجلس فيه، وأنزل وألقيه في هذا النهر وأسير به فإن وجدت خلاصاً الذي هو أنجُ بإذن الله (تعالى)، وإن لم أجد لي مخلصاً أمُتْ داخل هذا النهر، أحسن من هذا المكان، وصرت أتحسَّر على نفسي. ثم إني قمت وسعيت، فجمعت أخشاباً من تلك الجزيرة من خشب العود الصيني والقماري، وشددتها على جانب البحر بحبال المراكب التي كُسرت، وجئت بألواح مساوية من ألواح المراكب، ووضعتها في ذلك الخشب، وجعلت ذلك الفُلك في عرض ذلك النهر أو أقلّ من عرضه، وشددته طيِّباً مكيناً، وقد أخذت معي من تلك المعادن والجواهر والأموال واللؤلؤ الكبير الذي هو مثل الحصى، وغير ذلك

من الذي في تلك الجزيرة، وشيئاً من العنبر الخام الخالص الطيِّب، ووضعته في ذلك الفُلك، ووضعت فيه جميع ما جمعته من الجزيرة، وأخذت معي جميع ما كان باقياً من الزاد، ثم إني ألقيت ذلك الفُلك في هذا النهر وجعلت له خشبتين على جنبيه مثل المجاديف، وعملت بقول بعض الشعراء:

ترحَّلْ عن مكانٍ فيه ضيمٌ ... وخلِّ الدارَ تنعي مَنْ بناها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرض ... ونفسك لم تجدْ نفساً سواها
ولا تجزعْ لحادثةِ الليالي ... فكل مصيبة يأتي انتهاها
ومن كانت منيَّته بأرضٍ ... فليس يموتُ في أرضٍ سواها
ولا تبعث رسولك في مهمّ ... فما لنفسٍ ناصحة سواها

وسرت بذلك الفلك في النهر، وأنا متفكِّر فيما يصير إليه أمري، ولم أزل سائراً إلى المكان الذي يدخل فيه النهر تحت ذلك الجبل، فأدخلت الفلك في هذا المكان وقد صرت في ظلمة شديدة، فأخذتني سِنة من النوم من شدّة القهر، فنمت على وجهي في الفلك، ولم يزل سائراً بي وأنا نائم، لا أدري بكثير ولا قليل حتى استيقظت فوجدت نفسي في النور، ففتحت عينيَّ فرأيت مكاناً واسعاً، وذلك الفُلك مربوط على جزيرة، وحولي جماعة من الهنود والحبشة، فلمّا رأوني قمت نهضوا إليَّ وكلَّموني بلسانهم فلم أعرف ما يقولون، وبقيت أظنّ أنه حلم، وأن هذا في المنام من شدّة ما كنت فيه من الضيق والقهر. فلمّا كلّموني، ولم أعرف حديثهم، ولم أردّ عليهم جواباً تقدَّم إليَّ رجل منهم، وقال لي بلسان عربي: السلام عليك، يا أخانا. من أنت؟ ومن أين جئت؟ وما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ نحن أصحاب الزرع والغيطان، وجئنا لنسقي غيطاننا وزرعنا فوجدناك نائماً في الفُلك، فأمسكناه وربطناه عندنا، حتى تقوم على مهلك، فأخبرنا: ما سبب وصولك إلى هذا المكان؟ فقلت له بالله عليك، يا سيِّدي، ائتني بشيء من الطعام فإني

جائع، وبعد ذلك اسألني عمّا تريد، فأسرع وأتاني بالطعام، فأكلت حتى شبعت، واسترحت، وسكنَ روعي، وازداد شبعي ورُدَّت لي روحي، فحمدت الله (تعالى) على كلّ حال، وفرحت بخروجي من ذلك النهر ووصولي إليهم، وأخبرتهم بجميع ما جرى لي من أوَّله إلى آخره، وما لقيته في ذلك النهار وضيقه.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (551)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا طلع من الفلك على جانب الجزيرة، ورأى فيها جماعة من الهنود والحبشة، واستراح من تعبه، سألوه عن خبره فأخبرهم بقصَّته. ثم إنهم تكلَّموا فيما بينهم، وقالوا: لابدَّ أن نأخذه معنا، ونعرضه على ملكنا ليخبره بما جرى له. قال: فأخذوني معهم وحملوا معي الفلك بجميع ما فيه من المال والنوال والجواهر والمعادن والمصاغ، وأدخلوني على ملكهم، وأخبروه بما جرى، فسلَّم عليَّ ورحَّب بي، وسألني عن حالي وما اتَّفق لي من الأمور، فأخبرته بجميع ما كان من أمري، وما لاقيته من أوَّله إلى آخره، فتعجَّب الملك من هذه الحكاية غاية العجب، وهنَّأني بالسلامة. عند ذلك، قمت وأخرجت من ذلك الفلك شيئاً كثيراً من المعادن والجواهر والعود والعنبر الخام، وأهديته إلى الملك. فقبله مني وأكرمني إكراماً زائداً، وأنزلني في مكان عنده، وقد صاحبت أخيارهم وأكابرهم، وأعزّوني معزّة عظيمة، وصرت لا أفارق دار الملك، وصار الواردون إلى تلك الجزيرة يسألونني عن أمور بلادي، فأخبرهم بها، وكذلك أسألهم عن أمور بلادهم، فيخبروني بها، إلى أن سألني ملكهم، يوماً من الأيَّام، عن أحوال بلادي، وعن أحوال حكم الخليفة في بلاد مدينة بغداد، فأخبرته بعدله في أحكامه، فتعجَّب من أموره، وقال لي: والله، إن هذا الخليفة له أمور عقلية وأحوال مُرْضية، وأنت قد حبَّبتني فيه، ومرادي أن أجهِّز له هدية وأرسلها معك إليه. فقلت: سمعاً وطاعة، يا مولانا، سوف أوصلها إليه، وأخبره أنك محبّ صادق. ولم أزل مقيماً عند ذلك الملك، وأنا في غاية العزّ

والإكرام وحسن المعيشة، مدّة من الزمان، إلى أن كنت جالساً، يوماً من الأيَّام، في دار الملك، فسمعت بخبر جماعة من تلك المدينة أنهم جهَّزوا لهم مركباً يريدون السفر فيه إلى نواحي مدينة البصرة، فقلت في نفسي: ليس لي أوفق من السفر مع هؤلاء الجماعة، فأسرعت من وقتي وساعتي، وقبَّلت يد ذلك الملك، وأعلمته بأن مرادي السفر مع الجماعة في المركب الذي جهَّزوه، لأني اشتقت إلى أهلي وبلادي، فقال لي الملك: الرأي لك، وإن شئت الإقامة عندنا فعلى الرأس والعين، وقد حصل لنا أنسك، فقلت: والله، يا سيّدي، لقد غمرتني بجميلك وإحسانك، لكني اشتقت إلى أهلي وبلادي وعيالي. فلمّا سمع كلامي أحضر التجّار الذين جهّزوا المركب، وأوصاهم بي، ووهب لي شيئاً كثيراً من عنده، ودفع عني أجرة المركب، وأرسل معي هديّة عظيمة إلى الخليفة هارون الرشيد في مدينة بغداد. ثم إني ودَّعت الملك، ودّعت جميع أصحابي الذين كنت أتردَّد عليهم، ثم نزلت المركب مع التجّار، وسرنا وقد طاب لنا الريح والسفر، ونحن متوكِّلون على الله (سبحانه، وتعالى). ولم نزل مسافرين من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة حتى أن وصلنا بالسلامة- بإذن الله- إلى مدينة البصرة، فطلعت من المركب. ولم أزل مقيماً بأرض البصرة أيّاماً ولياليَ حتى جهَّزت نفسي، وحملت حمولي، ثم توجَّهت إلى مدينة بغداد (دار السلام) فدخلت على الخليفة هارون الرشيد، وقدَّمت إليه تلك الهديّة، وأخبرته بجميع ما جرى لي. ثم خزَّنت جميع أموالي وأمتعتي، ودخلت حارتي فجاءني أهلي وأصحابي، وفرَّقت الهدايا على جميع أهلي، وتصدَّقت، ووهبت. وبعد مدة من الزمان، أرسل إليَّ الخليفة فسألني عن سبب تلك الهديّة، ومن أين هي، فقلت: يا أمير المؤمنين، والله لا أعرف للمدينة التي هي منها اسماً ولا طريقاً، ولكن لمّا غرق المركب الذي كنت فيه طلعت على جزيرة، وصنعت لي فُلكاً، ونزلت فيه في نهر كان في وسط الجزيرة، ثم أخبرته بما جرى لي فيها، وكيف كان خلاصي من ذلك النهر إلى تلك المدينة، وبما جرى لي فيها، وبسبب إرسال الهدية، فتعجَّب من ذلك غاية العجب، وأمر المؤرِّخون أن يكتبوا

حكايتي، ويجعلوها في خزائنه ليعتبر بها كلّ من رآها، ثم إنه أكرمني إكراماً زائداً. أقمت في مدينة بغداد على ما كنت عليه في الزمن الأوَّل، ونسيت جميع ما جرى لي وما قاسيته من أوّله إلى آخره، ولم أزل في لذّة عيش ولهو وطرب. وهذا ما كان من أمري في السفرة السادسة، يا إخواني. وإن شاء الله (تعالى)، أحكي لكم، في غد، حكاية السفر السابعة، فإنها أعجب وأغرب من هذه السفرات، ثم إنه أمر بمدّ السماط، وتعشّوا عنده، وأمر السندباد البحري للسندباد الحمّال بمئة مثقال من الذهب، فأخذها وانصرف الجماعة وهم متعجِّبون من ذلك غاية العجب.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

الحكاية السابعة

(السفرة السابعة)

وفي الليلة (552)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا حكى حكاية سفرته السادسة، وراح كلّ واحد إلى حال سبيله، بات السندباد الحمّال في منزله، ثم صلّى الصبح، وجاء إلى منزل السندباد البحري ثم أقبل الجماعة. فلمّا تكلّموا ابتدأ السندباد البحري بالكلام في حكاية السفرة السابعة، وقال: اعلموا- يا جماعة- أني لمّا رجعت من السفرة السادسة، وعدت لما كنت عليه في الزمن الأوَّل من البسط والانشراح واللهو والطرب، أقمت على تلك الحالة مدّة من الزمان وأنا متواصل الهناء والسرور ليلاً ونهاراً، وقد حصل لي مكاسب كثيرة وفوائد عظيمة، فاشتاقت نفسي إلى الفرجة في البلاد، وإلى ركوب البحر وعِشْرة التجّار وسماع الأخبار، فهممت بذلك الأمر وحزمت أحمالاً بَحْرية من الأمتعة الفاخرة، وحملتها من مدينة بغداد

إلى مدينة البصرة، فرأيت مركباً محضَّراً للسفر، وفيه جماعة من التجّار العظام فنزلت معهم واستأنست بهم، وسرنا بسلامة وعافية، قاصدين السفر، وقد طاب لنا الريح حتى وصلنا إلى مدينة الصين، ونحن في غاية الفرح والسرور نتحدَّث معاً في أمر السفر والمتجر. فبينما نحن على هذه الحالة، وإذا بريح عاصف هبّ من مقدم المركب، ونزل علينا مطر شديد حتى ابتلّينا وابتلّت حمولنا فغطَّينا الحمول باللبّاد والخيش، خوفاً على البضاعة من التلف بالمطر، وصرنا ندعو الله (تعالى) ونتضرَّع إليه في كشف ما نزل بنا ممّا نحن فيه. فعند ذلك، قام ريِّس المركب، وشدَّ حزامه وتشمَّر وطلع على الصاري، وصار يلتفت يميناً وشمالاً، وبعد ذلك نظر إلى أهل المركب ولطم على وجهه ونتف لحيته، فقلنا: يا ريِّس، ما الخبر؟ فقال لنا: اطلبوا من الله (تعالى) النجاة ممّا وقعنا، وابكوا على أنفسكم، ليودِّعوا أحدكم الآخر، واعلموا أن الريح قد غلب علينا ورمانا في آخر بحار الدنيا. ثم إن الريِّس نزل من فوق الصاري، وفتح صندوقه وأخرج منه كيساً قطناً وفكَّه وأخرج منه تراباً مثل الرماد، وبلَّه بالماء، وصبر عليه قليلاً وشمَّه، ثم إنه أخرج من ذلك الصندوق كتاباً صغيراً وقرأ فيه، وقال لنا: اعلموا- يا ركّاب- أن في هذا الكتاب أمراً عجيباً يدلّ على أن كلّ من وصل إلى هذه الأرض لم ينجُ منها، بل يهلك، وهذه الأرض تسمّى (إقليم الملوك)، وفيها قبر سيِّدنا سليمان بن داود (عليهما السلام)، وفيه حيّات عظام الخلقة هائلة المنظر، فكلّ مركب وصل إلى هذا الإقليم يطلع له حوت من البحر فيبتلعه بجميع ما فيه. فلمّا سمعنا هذا الكلام من الريِّس تعجَّبنا غاية العجب من حكايته، فلم يُتمّ الريِّس كلامه لنا حتى صار المركب يترفَّع بنا عن الماء، ثم ينزل، وسمعنا صرخةً عظيمة مثل الرعد القاصف، فارتعبنا منها وصرنا كالأموات وأيقنّا بالهلاك في ذلك الوقت، وإذا بحوت قد أقبل على المركب كالجبل العالي ففزعنا منه، وقد بكينا على أنفسنا بكاءً شديداً، وتجهزنا للموت، وصرنا ننظر إلى ذلك الحوت ونتعجَّب من خلقته الهائلة، وإذا بحوت ثانٍ قد أقبل علينا، فما رأينا أعظم خلقةً منه ولا أكبر!. فعند ذلك، ودّع بعضنا بعضاً ونحن نبكي على أرواحنا، وإذا

بحوت ثالث قد أقبل وهو أكبر من الاثنين اللذين جاءانا قبله، وصرنا لا نعي ولا نعقل وقد اندهشت عقولنا من شدّة الخوف والفزع، ثم إن هذه الحيتان الثلاثة صارت تدور حول المركب، وقد أهوى الحوت الثالث ليبتلع المركب بكلّ ما فيه، وإذا بريح عظيم ثار فقام المركب ونزل على شِعْب عظيم، فانكسر وتفرَّقت جميع الألواح، وغرقت جميع الحمول والتجّار والركاب في البحر. فخلعت أنا جميع ما عليَّ من الثياب، ولم يبق عليَّ غير ثوب واحد، ثم عمت قليلاً فلحقت لوحاً من ألواح المركب، وتعلَّقت به ثم طلعت عليه وركبته، وقد صارت الأمواج والأرياح تلعب بي على وجه الماء وأنا قابض على ذلك اللوح، والموج يرفعني ويحطّني، وأنا في أشدّ ما يكون من المشقّة والخوف والجوع والعطش، وصرت ألوم نفسي على ما فعلته، وقد تعبت نفسي بعد الراحة فقلت: يا سندباد، يا بحريّ، أنت لم تتب! كلّ مرّة تقاسي فيها الشدائد والتعب، ولم تتب عن سفر البحر، وإن تبت تكذب في التوبة، فقاسِ كلّ ما تلقاه فإنك تستحقّ جميع ما يحصل لك.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (553) قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا غرق في البحر رَكب لوحاً من الخشب، وقال في نفسه: أستحقّ جميع ما يجري لي، وكلّ هذا مقدَّر عليّ من الله (تعالى) حتى أرجع عمّا أنا فيه من الطمع، وهذا الذي أقاسيه هو من طمعي؛ فإن عندي مالاً كثيراً، ثم إنه قال: وقد رجعتُ إلى عقلي، وقلت: إني في هذه السفرة قد تبت إلى الله (تعالى) توبة نصوحاً عن السفر، وما بقيت عمري أذكره على لساني، ولا يخطر في بالي. ولم أزل أتضرَّع إلى الله (تعالى)، وأبكي. ثم إني تذكَّرت في نفسي ما كنت فيه من الراحة والسرور واللهو والطرب والانشراح، ولم أزل على هذه الحالة أوَّل يوم وثاني يوم، إلى أن طلعت على جزيرة عظيمة فيها شيء كثير من الأشجار والأنهار فصرت آكل من ثمر تلك الأشجار، وأشرب من ماء تلك الأنهار حتى انتعشت ورُدَّت إليَّ روحي، وقويت همّتي، وانشرح صدري. ثم مشيت

في الجزيـرة، فرأيـت في جانبهـا الثـاني نهراً عظيـماً من المـاء العذب، لكن ذلـك النهـر يجـري جريـاً قويّـاً: فتذكـرت أمـر الفلـك الـذي كنـت فيه سـابقاً وقلـت في نفسي: لابـدَّ أن أعمـل لي فُلـكاً مثلـه لعـليّ أنجـو من هـذا الأمر، فـإن نجـوت بـه حصـل المـراد، وتبـت إلى اللـه (تعـالى) مـن السـفر، وإن هلكـت ارتـاح قلبـي مـن التعـب والمشـقّة. ثـم إني قمـت فجمعـت أخشـاباً مـن تلـك الأشـجار مـن خشـب الصنـدل العـال الـذي لا يوجـد مثلـه، وأنا لا أدري أيّ شيء هـو. ولمّـا جمعـت تلـك الأخشـاب تحلَّيـت بأغصـان ونبـات مـن هـذه الجزيـرة، وفتلتهـا مثـل الحبـال وشـددت بهـا الفلـك، وقلـت: إن سـلمت فمـن اللـه. ثـم إني أنزلت في ذلـك، الفلك وسرت بـه في ذلك النهر حتـى خرجـت مـن آخـر الجزيـرة، ثـم بعـدت عنهـا. ولم أزل سـائراً أوَّل يوم وثـاني يـوم وثالـث يـوم، بعـد مفارقـة الجزيـرة، وأنـا نائـم ولم آكل في هذه المـدّة شـيئاً، وإذا عطشـت شربـت مـن ذلـك النهـر، وصرت مثـل الفـرخ الدايـخ مـن شـدّة التعـب والجـوع، حتـى انتهـى بي الفلـك إلى جبـل عـالٍ، والنهـر داخـل مـن تحتـه. فلـمّا رأيـت ذلـك خفـت عـلى نفسي مـن الضيـق الـذي كنـت أنـا فيـه، أوّل مـرّة، في النهـر السـابق، وأردت أن أوقـف الفُلـك وأطلـع منـه إلى جانـب الجبل، فغلبني المـاء، فجذب الفلك وأنـا فيه ونزل بـه تحـت الجبـل. فلـما رأيت ذلـك أيقنـت بالهلاك، وقلـت: لا حـول ولا قوّة إلّا باللـه العـليّ العظيـم. ولم يـزل الفُلـك سـائراً مسـافة يسـيرة، ثـم طلـع إلى مـكان واسـع وإذا هـو واد كبـير، والمـاء يهـدر فيـه، ولـه دويٌّ مثل دويّ الرعـد، وجريـانٌ مثـل جريـان الريح، فـصرت قابضاً على ذلـك الفُلك بيدي، وأنـا خائـف أن أقـع فوقـه، والأمـواج تلعب بي يميناً وشـمالاً في وسـط ذلك المـكان. ولم يـزل الفلـك منحـدراً مـع المـاء الجـاري في ذلك الـوادي، وأنا لا أقـدر عـلى منعـه، ولا أسـتطيع الدخـول به في جهة البـرّ، إلى أن رسى بي عـلى جانـب مدينـة عظيمـة المنظـر مليحـة البنـاء، فيهـا خلـق كثـير. فلـمّا رأوني وأنـا في ذلـك الفُلـك منحـدراً في وسـط النهـر مـع التيّـار رمـوا عـليَّ الشـبكة والحبـال في ذلـك الفلـك، ثـم أطلعـوا الفُلـك مـن ذلـك النهـر إلى البـرّ، فسـقطت بينهـم وأنـا مثل الميِّـت من شـدّة الجوع والسـهر والخوف، فتلقّـاني مـن بـين هـؤلاء الجماعة رجـلٌ كبير في السـنّ، وهو شـيخ عظيم،

ورحَبَّ بي ورمى لي ثياباً كثيرة جميلة فسترت بها عورتي، ثم إنه أخذني وسار بي وأدخلني الحمّام، ثم جاء لي بالأشربة والروائح الزكية، ثم بعد خروجنا من الحمّام أخذني إلى بيته وأدخلني فيه، ففرح بي أهل بيته، وأجلسني في مكان ظريف، وهيَّأ لي شيئاً من الطعام الفاخر، فأكلت حتى شبعت، وحمدت. بعد ذلك، قدَّم لي غلمانه ماءً ساخناً فغسلت يدي، وجاءني جواريه بمناشف من الحرير فنشَّفت يدي ومسحت فمي، ثم إن ذلك الشيخ قام من وقته، وأخلى لي مكاناً منفرداً وحده في جانب داره، وألزم غلمانه وجواريه بخدمتي وقضاء حاجتي وجميع مصالحي، فصاروا يتعهَّدونني. ولم أزل على هذه الحالة عنده في دار الضيافة، ثلاثة أيّام، وأنا على أكل طيِّب وشرب طيِّب ورائحة طيِّبة حتى رُدَّت إليَّ روحي، وسكن روعي، وهدأ قلبي، وارتاحت نفسي. فلمّا كان اليوم الرابع، تقدَّم إليَّ الشيخ وقال لي: آنستنا، يا ولدي. والحمد لله على سلامتك، فهل لك أن تقوم معي إلى ساحل البحر، وتنزل السوق فتبيع البضاعة وتقبض ثمنها؛ لعلَّك تشتري بها شيئاً تتَّجر فيه؟ فسكتّ قليلاً، وقلت في نفسي: ليس معي بضاعة، وما سبب هذا الكلام؟ قال الشيخ: يا ولدي، لا تهتمّ ولا تفكِّر، فقم بنا إلى السوق، فإن رأينا من يعطيك في بضاعتك ثمناً يرضيك أقبضه لك، وإن لم يجئ فيها شيء يرضيك أحفظها لك عندي في حواصلي، حتى تجيء أيّام البيع والشراء. فتفكَّرت في أمري، وقلت لعقلي: طاوِعْه، حتى تنظر أيَّ شيء تكون هذه البضاعة، ثم قلت له: سمعاً وطاعة، يا عمّي الشيخ. والذي تفعله فيه البركة، ولا يمكنني مخالفتك في شيء، ثم جئت معه إلى السوق فوجدته قد فكّ الفُلك الذي جئت فيه، وهو من خشب الصندل وأطلق المنادي.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (554)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا ذهب مع الشيخ إلى شاطئ البحر، ورأى الفلك الذي جاء فيه من خشب الصندل مفكوكاً، ورأى الدلّال يدلِّل عليه التجّار،

وفتحوا باب سعره وتزايدوا فيه إلى أن بلغ ثمنه ألف دينار، وبعد ذلك توقَّف التجّار عن الزيادة، فالتفت إلى الشيخ وقال: اسمع، يا ولدي، هذا سعر بضاعتك في مثل هذه الأيّام، فهل تبيعها بهذا السعر أم تصبر وأنا أحفظها لك عندي في حواصلي حتى يجيء أوان زيادتها في الثمن، فنبيعها لك؟ فقلت له: يا سيِّدي، الأمر أمرك، فافعل ما تريد. فقال: ياولدي، أتبيعني هذا الخشب بزيادة مئة دينار ذهباً فوق ما أعطى فيه التجّار؟ فقلت له: نعم، بعتك. ثم قبضت الثمن. فعند ذلك، أمر غلمانه بنقل الخشب إلى حواصله، ثم إني رجعت معه إلى بيته، فجلسنا وعَدَّ لي جميع ثمن ذلك الخشب، وأحضر لي أكياساً ووضع المال فيها وقفل عليها بقفل حديد، وأعطاني مفتاحه. وبعد مدّة أيّام وليالٍ، قال الشيخ: يا ولدي، إني أعرض عليك شيئاً، وأشتهي أن تطاوعني فيه، فقلت له: وما ذاك الأمر؟ فقال لي: اعلم أني بقيت رجلاً كبير السنّ، وليس لي ولد ذكر، وعندي بنت صغيرة السنّ ظريفة الشكل، لها مال كثير وجمال، فأريد أن أزوِّجها لك وتقعد معها في بلادنا، ثم إني أملِّكك جميع ما هو عندي، وما تملكه يدي، فإني أصبحت رجلاً كبيراً، وأنت تقوم مقامي. فسكتُّ، ولم أتكلَّم. فقال لي: أطعني، يا ولدي، في الذي أقوله لك، فإن مرادي لك الخير، فإن أطعتني زوَّجتك ابنتي، وصرت مثل ولدي، وجميع ما في يدي وما هو ملكي يصير لك، وإن أردت التجّارة والسفر إلى بلادك فلن يمنعك أحد، وهذا لك تحت يدك، فافعل به ما تريد وما تختاره. فقلت له: والله، يا عمّي الشيخ، أنت صرت مثل والدي، وأنا قاسيت أهوالاً كثيرة، ولم يبق لي رأي ولا معرفة، فالأمر أمرك في جميع ما تريد. فعند ذلك، أمر الشيخ غلمانه بإحضار القاضي والشهود، فأحضروهم وزوَّجني ابنته، وعمل لنا وليمة عظيمة وفرحاً كبيراً، وأدخلني عليها، فرأيتها في غاية الحسن والجمال بقدرٍ واعتدال، وعليها شيء كثير من أنواع الحلي والحلل والمعادن والمصاغ والعقود والجواهر الثمينة التي قيمتها ألوف الألوف من الذهب، ولا يقدر أحد على ثمنها. فلمّا دخلت عليها أعجبتني، ووقعت المحبّة بيننا، وأقمت معها مدّة من الزمان وأنا

في غاية الأنس والانشراح، وقد توفيِّ والدها إلى رحمة الله (تعالى) فجهزناه ودفنّاه. ثم وضعت يدي على ما كان معه، وصار جميع غلمانه غلماني وتحت يدي، وفي خدمتي، وولّاني التجّار مرتبته لأنه كان كبيرهم، ولا يأخذ أحد شيئاً إلّا بمعرفته وإذنه؛ لأنه شيخهم، وصرت أنا في مكانه. فلمّا خالطت أهل تلك المدينة وجدتهم تنقلب حالتهم في كلّ شهر، فتظهر لهم أجنحة يطيرون بها إلى عنان السماء، ولا يبقى متخلِّفاً في ذلك المدينة غير الأطفال والنساء! فقلت في نفسي: إذا جاء رأس الشهر أسأل أحداً منهم، فلعلَّهم يحملوني معهم إلى أين يروحون، فلمَّا جاء رأس ذلك الشهر تغيَّرت ألوانهم، وانقلبت صورهم، فدخلت على واحد منهم وقلت له: بالله عليك، احملني معك حتى أتفرَّج، وأعود معكم، فقال لي: هذا شيء لا يمكن. فلم أزل أتدخَّل عليه، حتى أنعم عليَّ بذلك، وقد رافقتهم وتعلَّقت به، فطار بي في الهواء، ولم أُعلِم أحداً من أهل بيتي ولا من غلماني ولا من أصحابي. ولم يزل طائراً بي ذلك الرجل، وأنا على أكتافه حتى علا بي في الجوّ، فسمعت تسبيح الأملاك في قبّة الأفلاك، فتعجَّبت من ذلك وقلت: سبحان الله، والحمدلله! فلم أستتمّ التسبيح حتى خرجت نار من السماء كادت تحرقهم، فنزلوا جميعاً، وألقوني على جبل عالٍ، وقد صاروا في غاية الغيظ مني، وراحوا وخلّوني، فصرت وحدي في ذلك الجبل، فلمت نفسي على ما فعلت، وقلت: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. ما إن أنجحُ من مصيبة حتى أقع في مصيبة أقوى منها. ولم أزل في ذلك، ولا أعلم أين أذهب، وإذا بغلامين سائرين كأنهما قمران، وفي يد كلّ واحد منهما قضيب من ذهب، يتعكَّز عليه، فتقدَّمت إليهما وسلَّمت عليهما، فردّا عليَّ السلام، فقلت لهما: بالله عليكما، من أنتما؟ وما شأنكما؟ فقالا لي: نحن من عباد الله (تعالى) ثم إنهما أعطياني قضيباً من الذهب الأحمر الذي كان معهما، وانصرفا في حال سبيلهما وخلَّياني. فصرت أسير على رأس الجبل، وأنا أتعكز بالعكّاز، وأتفكَّر في أمر هذين الغلامين، وإذا بحَيّة قد خرجت من تحت ذلك الجبل، وفي فمها رجل بلعته إلى تحت صرته وهو يصيح ويقول: من

يخلِّصني يخلِّصه الله من كلّ شدة، فتقدَّمت إلى تلك الحيّة وضربتها بالقضيب الذهبي على رأسها، فرمت الرجُل من فمها.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (555)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السندباد البحري لمّا ضرب الحيّة بالقضيب الذهب الذي كان بيده، وألقت الرجل من فمها، قال: فتقدَّم إليَّ الرجل، وقال: حيث كان خلاصي على يديك من هذه الحيّة، فما بقيت أفارقك، وأنت صرت رفيقي في هذا الجبل، فقلت له: مرحباً. وسرنا في ذلك الجبل، وإذا بقوم أقبلوا علينا، فنظرت إليهم فإذا فيهم الرجل الذي كان حملني على أكتافه وطار بي، فتقدَّمت إليه واعتذرت له، وتلطَّفت به، وقلت له: يا صاحبي، ما هكذا تفعل الأصحاب بأصحابهم! فقال لي الرجل: أنت الذي أهلكتنا بتسبيحك على ظهري. فقلت له: لا تؤاخذني، فإني لم أكن أعلم بهذا الأمر، لكنني لا أتكلَّم، بعد ذلك، أبداً، فسمح بأخذي معه، لكنه اشترط عليَّ ألّا أذكر الله، ولا أسبِّحه على ظهره. ثم إنه حملني، وطار بي مثل الأوّل حتى أوصلني إلى منزلي، فتلقَّتني زوجتي، وسلَّمت عليَّ، وهنَّأتني بالسلامة، وقالت لي: احترس من خروجك، بعد ذلك، مع هؤلاء الأقوام، ولا تعاشرهم؛ فإنهم إخوان الشياطين، ولا يعلمون ذكر الله (تعالى). فقلت لها: كيف حال أبيك معهم؟ فقالت لي إن أبي ليس منهم، ولا يعمل مثلهم، والرأي عندي- حيث مات أبي- أنك تبيع جميع ما عندنا، وتأخذ بثمنه بضائع، ثم تسافر إلى بلادك وأهلك، وأنا أسير معك، فليس لي حاجة بالقعود هنا في هذه المدينة، بعد أمّي وأبي. فعند ذلك صرت أبيع من متاع ذلك الشيخ شيئاً بعد شيء، وأنا أترقَّب أحداً يسافر من تلك المدينة، فأسير معه. فبينما أنا كذلك، وإذا بجماعة في المدينة أرادوا السفر، ولم يجدوا لهم مركباً، فاشتروا خشباً وصنعوا لهم مركباً كبيراً، فاكتريت معهم، ودفعت إليهم الأجرة بتمامها. ثم أنزلت زوجتي وجميع ما كان معنا في المركب، وتركنا الأملاك والعقارات، فسرنا ولم نزل سائرين في البحر من جزيرة إلى جزيرة، ومن بحر إلى بحر،

وقد طاب لنا ريح السفر، حتى وصلنا- بالسلامة- إلى مدينة البصرة، فلم أقم بها، بل اكتريت مركباً آخر، ونقلت إليه جميع ما كان معي، وتوجَّهت إلى مدينة بغداد، ثم دخلت حارتي، وجئت داري وقابلت أهلي وأصحابي وأحبابي وخزَّنت جميع ما كان معي من البضائع في حواصلي، وقد حسب أهلي مدَّة غيابي عنهم في السفرة السابعة، فوجدوها سبعاً وعشرين سنة حتى قطعوا الرجاء مني. فلمّا جئت وأخبرتهم بجميع ما كان من أمري، وما جرى لي صاروا كلَّهم يتعجَّبون من ذلك الأمر عجباً كبيراً، وقد هنّأوني بالسلامة، ثم إني تبت إلى الله (تعالى) عن السفر في البرّ وفي البحر، بعد هذه السفرة السابعة التي هي غاية السفرات وقاطعة الشهوات، وشكرت الله (سبحانه وتعالى)، وحمدْتُه، وأثنيت عليه، لأنه أعادني إلى أهلي وبلادي وأوطاني. فانظر، يا سندباد، يا برّي، ما جرى لي، وما وقع لي، وما كان من أمري! فقال السندباد البرّي للسندباد البحري: بالله عليك، لاتؤاخذني بما كان منّي في حقِّك. ولم يزالوا في مودّة مع بسط زائد وفرح وانشراح، إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرِّق الجماعات ومخرِّب القصور ومعمِّر القبور؛ وهو كأس الموت، فسبحان الحيّ الذي لا يموت.

الفهرس

تقديم 5

حكايات السندباد 27

الحكاية الأولى: (أوَّل السفرات) 33

الحكاية الثانية: (السفرة الثانية) 43

الحكاية الثالثة: (السفرة الثالثة) 51

الحكاية الرابعة: (السفرة الرابعة) 63

الحكاية الخامسة: (السفرة الخامسة) 75

الحكاية السادسة: (السفرة السادسة) 85

الحكاية السابعة: (السفرة السابعة) 93

صدر في سلسلة

كتاب الوحدة

	2011	
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
	2012	
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
	2013	
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي

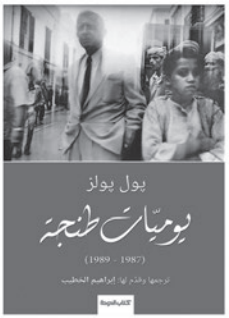
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	مجموعة مؤلفين
	2014	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشيل سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة «العصفور الصغير»	مختارات شعرية
	2015	
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
	2016	
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصريّة (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني

	2017	
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى
74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلَاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان
77	قِطافٌ (مُختَارَات مِن اَلْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ فِي قَطَر)	مجموعة من الكتاب
78	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقية إلى غربيها) ج: 1	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
79	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية. ج: 2	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
	2018	
80	مذكرات دجاجة	إسحق موسى الحسيني
81	ماذا يقول غاندي عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة؟	نورمان ج. فينكلستاين- ترجمة: أحمد زراقي
82	نشأة اللوحة المسندية في الوطن العربي	د. نزار شقرون
83	مِن سِيَر الأَبْطَال والعُظَمَاءِ القُدَماء	إس. إس. بيو - ترجمة: يعقوب صروف - فارس نمر
84	مقالاتٌ في الأدب العربيّ	إغناطيوس كراتشكوفسكي
85	سِرُّ النَّجَاح	صموئيل سمايلز - ترجمة: يَعقُوب صَرُّوف
86	مِنْ آثَارِ مُعَاوِيَة مُحَمَّد نُور	مُعَاوِيَة مُحَمَّد نُور
87	إِنشَاءُ المُكَاتَبَاتِ العَصْرِيَّة	أحمد الهاشمي
88	أجراس أكتوبر - مُخْتَاراتٌ مِنَ الشِّعْرِ السُّوفْيِيتِّي	ترجمة: عبدالرحمن الخميسي وآخرين
89	حكايات من لافونتين	اختارها وترجمها: جبرا إبراهيم جبرا
90	مع بورخيس	ألبيرطو مانْغيل - ترجمة: إبراهيم الخطيب
91	الرواية الجديدة والواقع	لوسيان جولدمان، ناتالي ساروت، آلان روب غرييه، جينفياف مويلو. ترجمة: رشيد بنحدو
	2019	
92	غزلان الليل (حكاياتٌ شعبيَّة أمازيغيَّة)	إميل لاوست - ترجمة: إدريس الملياني
93	الذُّبَابَةُ	المؤلف: جورج لانغلان - ترجمة: خليفة هزّاع
94	ترجمة النفس (السيرة الذاتية عند العرب)	عبد اللطيف الوراري
95	صندوق العجائب	أحمد الصفريوي - ترجمة: رشيد مرون
96	النقد الأدبي	كارلوني وفيلو - ترجمة: كيتي سالم
97	خوان مانويل روكا.. صَانِعُ المَرَايَا (مختارات شعريّة)	ترجمة: خالد الريسوني
98	بحوث في الرّوَايَة الجَديدة	ميشيل بوتور-ترجمة: فريد أنطونيوس
99	الأدب والتحليل النفسيّ	حسن المودن

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة













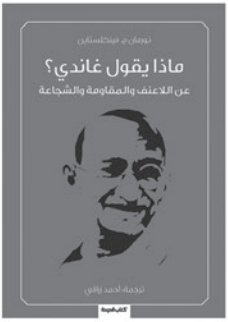












صرَّحَ السندبادُ البَحريّ بأنّ الشروعَ في السّفر انطلقَ أساساً، في البَدء، بَعْد إضاعَةِ إرْث الأب وبَيْع ما تبقّى منه، أو بتعبيره، بَعْدَ بَيْعِ جميع ما تَملكُ يَدُه. انطلاقُ السّفر، بهذا المعنى، تمَّ، إذاً، بدافعِ الانفصال عن الأب وشَقِّ بدايةٍ جديدة، أي بدافعِ البَحْث عن الذات واختبار أَقْصى مُمْكِنها. لقد كانَ الانفصالُ، في تجربةِ السندباد البَحريّ، حَيويّاً في بناءِ هُويّته.. انفصالٌ يتكشَّفُ مِنْ قراءةِ تماسِّ الحياة بالمَوت، ومِنْ تَماسّ الفَقْد بالامتلاك فيها، وتماسِّ التيه بالاستهداء في الدّرب الذي تشُقُّهُ هذه الشخصيّةُ لحَياتها، على نَحْوٍ جعلَ تجربةَ السندباد حَدِّيَّةً؛ تُقيمُ في الحَدِّ الفاصل بَين طرَفَيْن مُتقابلَيْن، وتَبْني مِن داخل هذا الحَدّ، الوَاصِلِ لا الفاصِل، مَعْنى خَصيباً للذات وللحَياة..

في هذه التجربة، ثمَّةَ مَشهدٌ يَكادُ يكونُ ثابتاً، يتعلّقُ الأمرُ بالسندباد وَحيداً بلا رفيق، مُجرَّداً من كلِّ شيء، وبدُون متاع. مِن داخل هذا المشهدِ الذي يُقوِّي دلالةَ الانفصال، تَبْدَأُ، في الغالب، مُغامَرةُ اختبار أَقْصى مُمْكِن الذات، على شفا المَوت. بُلوغُ الأقاصي، الذي تُرْسيهِ تجربةُ السندباد، يُفيدُ دَوماً أنّ الطريقَ إلى البَعيد القَصيِّ تيهٌ وفقدٌ، ويُفيدُ أنّ هذه الطريقَ إقامةٌ لا على حُدُودِ المَوت وحسب، بل اختبارٌ لأقسَى صِيَغه وأقْصاها. ذلك أنّ حكايةَ السّفرات السّبْع تضمَّنَت تدرُّجاً في فَظاعةِ المَوت، كما لوْ أنّها كانَت تَرُومُ الإقناعَ باختبار الشخصيّةِ لكُلِّ أشكاله.

خالد بلقاسم

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة
كتاب الدوحة